مشروع القرن الثقافى

روايات مصرية للجيب

فى كل رواية متعة دائمة

د. نبيل فاروق

كوكتيل ٢٠٠٠

ثقافة الغد .. لشباب اليوم

49

جدى الحبيب

(وقصص أخرى)



باقة من القصص
والروايات المصرية
قمة فى التشويق والإثارة

روايات مصرية للجيب

كوكتيل ٢٠٠٠

فى هذا الكتاب

صفحة

Rano

المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع بالقاهرة والاسكندرية

الثمن فى مصر 700
وما يعادله بالدولار الأمريكى
فى سائر الدول العربية والعالم

- مع القــــرن الحـادى والعشرين ..
- مع التطور السريع للعلوم والفنون والآداب .
- مع ضرورة أن تصبح المعرفة حتمية كالماء والهواء ..
- مع كل هذا جاءت كوكتيل 2000 ، بمثابة باب إلى المعرفة ..
- *إلى الحضارة ..*
- *إنها ثقافة الغد .. لشباب اليوم ..*

جاسوس نصف القرن (دراســة)

خمسون عامًا تمـر ، على أول ظهـور لأشهر جاسوس على الشاشة ، طوال نصف قـرن من الزمان ، دون أن تنجح أية شخصية جاسوسية أخـرى فى منافسته ، أو حتى بلـوغ ذلك المستوى الذى بلغـه ، من عدد مشاهديه ، أو إيرادات أفلامه ، بدءًا مـن (دكتور نو) ، وحتى (كازينو رويال) ... العميل السرى ، أو الجاسوس البريطانى الأشهر (جيمس بوند) ، الذى يحمل الرقم (007) ، وهو ذلك الرمز الكودى المتميز ، الذى يعنى أنه يحمل تصريحًا دائمًا بالقتل ، دون الرجوع إلى رؤسائه ، بدأ كروايات أو قصص قصيرة ، لمبتكر الشخصية (أيان فليمنج) ، والذى كون الشخصية من مزيج من بعض الشخصيات ، التى التقى بها ، أو عمل معها ، عندما التحق بالمخابرات البحرية البريطانية ، فى زمن الحرب العالمية الثانية ... والطريف أن (فليمنج) كان شابًا عابثًا ، لأسرة إنجليزية عريقة ، يأست أمه من محاولة تقويم سلوكه ، أو حتى إقناعه بالعمل فى شركة الأوراق المالية ، التى تملكهـا الأسرة ، فسعت لإلحاقه بكلية عسكرية ؛ لعـل هـذا يساعده على الانضباط ، إلا أنه استغل وسامته الشديدة ، لإقامة علاقة مع زوجة مدير الكلية العسكرية ، أدى انكشاف أمرها إلى فصله من الكلية ، مما أجبره على العمل

فى شركة الأوراق المالية للأسرة ، ولكن اندلاع الحرب العالمية الثانية أجبر الشركة على إغلاق أبوابها ، وخشيت الأم من عودة (فليمنج) إلى حياة العبث ، ومن اضطراره للالتحاق بالجيش ، والسفر إلى الجبهة ، فسعت لإلحاقه بوظيفة عسكرية إدارية ، عبر صديق للأسرة ، اتخذه سكرتيرًا خاصًا ، فى المخابرات البحرية البريطانية ... وهناك تألقت قريحة (فليمنج) ، وظهرت مواهبه الفـذة ، فى ابتكار وسائل العمليات الاستخباراتية غير المعتادة ، والتخطيط للضربات على نحو غير متوقع ... وعلى الرغم من مواهبه ، لم يتجاوز (فليمنج) وظيفته كسكرتير عسكرى ، داخل المخابرات البحرية ، حتى وضعت الحرب أوزارها ، فتم صرفه من الخدمة ، ليعود مضطرًا للعمل فى شركة الأوراق المالية ، التى فتحت أبوابها مرة أخرى بعد الحرب ... فى تلك الفترة ، ابتكر (فليمنج) شخصية (بوند) ، الجـرىء ، المغـامر ، صاحب الشخصية المميزة ، واختار له اللهجة الاسكتلندية ، التى أعجبته من رئيسه المباشر ، فى فترة العمل فى المخابرات ... ومن مجموعة قصص قصيرة إلى رواية وأخـرى ، جذبت الشخصية انتبـاه واهتمام صناع السينما ، واختاروا قصة (دكتور نو) ، كأول عمل يقدم (بوند) على الشاشة ، والطريف أنهم اختاروا الممثل ذائع الصيت آنذاك (جريجورى بيك) ؛ لأداء دور (جيمس بوند) ، ولكن (بيك)

كانت له مطالب ، رفض المخرج الرضوخ لها ، فقرر أن يتحدّى شعبية (جريجورى بيك) ، ويختار ممثلاً جديدًا ؛ للعب دور (بوند) على الشاشة ... باختصار ، لقد راهن على الشخصية ، بأكثر مما راهن على النجم ... وعندما بدأ اختيار من يؤدى دور بوند ، لم يرق أى من المتقدمين للمخرج (تيرنس يونج) ، حتى إنه فكر فى إعادة التفاوض مع (جريجورى بيك) ، لولا أن ساقت إليـه الأقـدار (شين كونرى) ، الذى جذب بعض اهتمامه ، بلهجتـه الاسكتلندية المتميزة ، وقامته الرياضية الممشوقة ، إلا أنه لم يحسم قراره بشأنه تمامًا ، وبدأ التفكير فى (بيك) ، حتى بعد انصراف (كونرى) ... وكـان (يونج) منهمكًا فى التفكير أمام النافذة ، عنـدما شاهد (كونرى) ينصرف ، بقامة ممشوقة ، وخطوات واثقة قوية ، فهتف فجأة : « أريد هذا الرجل » ... وقد كان ... وفى عام 1962م ، ظهر أول أفلام (بوند) (دكتور نو) ، المأخوذ عن رواية بنفس الاسم ، كتبها (فليمنج) عام 1958م ، وقام ببطولته (شين كونرى) ، مع صاروخ الإغراء فى ذلك الحين (أورسولا أندرسن) ، حيث دارت الأحداث فى (جاميكا) ، وهناك يتصدى (بوند) للعدو (دكتور جولياس نو) ، الذى يعترض إطلاق الصواريخ الأمريكية ، بموجات راديو قوية ... لم تكن رواية (دكتور نو) هى أول روايات (فليمنج) عن شخصية (بوند) ، وإنما كانت روايته

الأولى هى (كازينو رويال) ، والتى لم تنتج سينمائيًا إلا بعدها بعشرات السنين ، ولكن (دكتور نو) كانت بداية الانطلاق لشخصية (بوند) فى عالم السينما ، ولعدد آخر من شخصيات حاولت تقليده ، فى سينما الجاسوسية ، ولكن تركيبتها لم تحقق النجاح ذاته ... ولقد تعاقب عدد من الممثلين على أداء شخصية (بوند) ، خلال نصف قرن ، فمن بداية الشخصية سينمائيًا ، مع (شين كونرى) ، ثم محاولة إحلاله بالممثل المسرحى (جورج ليزنبى) ، فقط لمجرد التشابه الشكلى بينهما ، ثم فشل (ليزنبى) بعد فيلم واحـد ، واختيار (روجـر مـور) ، بطل الحلقات التليفزيونية (القديس) ، للعب دور (بوند) لعدة سنوات ، ثم (تيموثى دالتون) ، وبعده (بيرس بروسنان) ، ثم (دانيال كريج) ... تعاقب من أدوا الدور ، وبقيت شخصية (بوند) تتحدى عالم سينما الجاسوسية ، وتنتقل من نجاح إلى نجاح ، على نحو تحول إلى أسطورة على الشاشة ، تصعب منافستها ، بعد نجاح دام واستقر لنصف القرن ... وعلى الرغم من أن (بوند) يمثل التيار الكلاسيكى النمطى ، فى شـكل وطبيعة الجاسوس ، ومن أن عشرات الشخصيات الأخـرى قـد سعت لمواكبة التطور ، ونجحت فى رسم صورة مغايرة للجاسوس ، إلا أن شخصية (بوند) بقيت مطلوبة على الشاشة ، بكل كلاسيكيتها ونمطها ، فهو الجاسوس الوسيم ، الحذر ، الذكى ،

صاحب العقلية الثعلبية ، والمهارات التى لا حدود لها ، والذى يواجه دومًا شخصيات غير عادية ، لكل منها نمط غير تقليدى ، وتسعى كلها إلى هدف واحد ، الا وهو السيطرة على العالم ، على نحو أو آخر ... فالجمهور أحب (بوند) على ما هو عليه ، وعشـق دهاءه ، وذكـاءه ، وسـعة حيلته ، وحتى شغفه بالجميلات ، والملابس الأنيقة ، والأجهزة الحديثة المبتكرة ، التى يفاجئ بها جمهـور السـينما دومًا ، فى مواجهاته مع الآخرين ... المدهش أن معظم الابتكارات ، التى ظهرت فى عالم (بوند) ، والتى بدت مبهرة فى حينها ، قد صارت اليوم سلعًا متاحة ، على شبكة الإنترنت ، لأى مستهلك عادى ، ولم تعد مبتكرات (بوند) هى التى تثير المشاهد ، وإنما (بوند) نفسه ، والذى ينتظر الكل فيلمه القادم فى شوق ولهفة ، دلالة على نجاح الشخصية المبهر ، خلال نصف قرن ... وعلى الرغم من النجاح الكبير لأفـلام (جيمس بوند) ، فى المجتمعات العربية على وجه العموم ، والمجتمع المصرى على وجه الخصوص ، إلا أن شاشات السينما لدينا لم تنجب بعد أية شخصية مماثلة ، ربما لأن القانون يفرض مراجعة الأجهزة الاستخباراتية والأمنية لمثل هـذه الأعمال الدراميـة ، على الرغـم من ضعف الثقافة الدرامية لدى رجال الجهات الأمنية والاستخباراتية فى هذا الشأن ، وحساسياتهم المفرطة تجاه كل ما يتعلق بهم ، وإصرارهم على

أن كل ما لا يتوافق مع الحقيقة والواقع ، بنسبة مائة فى المائة ، يسيئ إليهم وإلى أجهزتهم ، على الرغم من أننا لم نسمع أو نقرأ دراسة واحدة ، تشير ، أو حتى توحى بأن أفلام (جيمس بوند) أو مثيلاتها ، قد أساءت إلى جهاز المخابرات البريطانى ، أو الأمريكى ، أو أى جهاز آخر ، بل على العكس تمامًا ، لقد زادت من انبهار العامة به ، ومن احترامهم له ، ولكنها مشكلة الرقابة دومًا ، أيًّا كانت جهتها ، أنها تصر على تسييد فكرها ورؤيتها ، دون محاولة النقاش أو المراجعة ... وبغض النظر عن عدم وجود شخصيات سينمائية استخباراتية على الشاشة ، على الرغم من وجودها فى الأدب المطبوع ، فأفلام الجاسوسية على نحو عام ، لم تبلغ لدينا حد الفيلم المتقن ، بأى حال من الأحوال ، فقديمًا شاهدنا فيلم (جريمة فى الحى الهادى) ، والذى بدا فيه الجواسيس فى صورة ساذجة ضعيفة ، يسيل لعابهم على امرأة جميلة ، ويدمنون المواد المخدرة ، ويفقدون أعصابهم فى سرعة ، وكل ما يخالف طبيعة أصغر جاسوس ، فى أصغر دولة ، ورأينا فيلم (الجاسوس) ، لملك الترسو آنذاك (فريد شوقى) ، والذى حاول من خلاله تقليد أفلام وشخصية (بوند) ، حتى إنه اختار للبطل أن يكون ضابطًا فى القوات البحرية ؛ حتى يرتدى نفس الزى الذى ارتداه (بوند) ، فى بعض أفلامه ، وفى ذلك الفيلم شاهدنا الفنان (عزت العلايلى) يلعب

دور الجاسوس ، على النحو الذى يناسب الأفلام الهزلية ، بأكثر مما يناسب الأفلام الجادة ؛ إذ يرتدى معطف مطر ، ومنظار شمس أسود فى قلب الليل ، ولا تنقصه سوى لافتة توضع على صدره ، وعليها إشارة واضحة إلى أنه جاسوس .... ولكن أفلام الجاسوسية الأفضل ، لم تظهر على الشاشة ، إلا عقب حرب أكتوبر 1973م ، عندما ظهر أول فيلم عن الجاسوسية ، مأخوذ عن قصة حقيقية ، ومعالج بحرفية ، جعلته أفضل فيلم جاسوسية مصرى ، وربما حتى لحظة كتابة هذه السطور ، وهو فيلم (الصعود إلى الهاوية) ، والذى روى تفاصيل واحدة من أنجح عمليات المخابرات العامة المصرية ، قبيل حرب أكتوبر ... والفيلم الذى قام ببطولته الفنان القدير (محمود ياسين) ، مع النجمة الراحلة (مديحة كامل) ، وأخرجه (كمال الشيخ) ، تعامل ولأول مرة على الشاشة العربية ، مع عالم المخابرات بوعى واقتدار ، وبحرفية تتناسب مع الواقع الفعلى لذلك العالم المثير ، وفتح الباب لنوعية جديدة من دراما الجاسوسية ، والتى كان الفيلم هو نقطة التحول فى مسارها... وهذا يختلف بالتأكيد ، عما خرجت علينا به (نادية الجندى) ، من مجموعة من أفلام ساذجة المضمون ، ولكنها حققت نجاحًا جماهيريًّا كبيرًا ، فقط لأنها تتحدث عن عالم المخابرات ، بكل غموضه وأسراره ... فى ذلك الحين ، ومع قلة عدد أفلام المخابرات ، على الشاشة

الكبيـرة ، فاجأ التليفزيون المصرى مشاهديه ، بواحـد مـن أروع مسلسلات الجاسوسية ، عبر تاريخ الدراما كله ، وهو مسلسل (دموع فى عيون وقحة) ، والذى قام ببطولته الفنان (عادل إمام) ، مع (معالى زايد) ، و(مشيرة) ، و(مصطفى فهمى) ، وروى قصة (أحمد الهوان) ، الذى حاول الإسرائيليون تجنيده ، عقب نكسة يونيو 1967م ، ولكنه لجأ إلى المخابرات المصرية ، الذى جعلته يتعاون معها ، على خداع العدو الإسرائيلى ، الذى وثق فى انتمائه إليه تمامًا ، حتى إنه منحه أحـد أقوى وأحدث أجهزة الاتصال حينذاك ، والذى لم يكن سـوى النسخة الأولية ، من الهاتف المحمول ، الذى يحمله كل شاب الآن ... حول المسلسل ، الذى كتبه الراحل المبدع (صالح مرسى) ، اسم (أحمد الهوان) إلى (جمعة الشوان) ؛ لأسباب أمنية صرفة ، وتعلقت عقول وقلوب شعب (مصر) ، من (الإسكندرية) إلى (أسوان) بمجموعـة المسلسل ، الذى يطلق عليه الناس اسم (مسلسل جمعة الشوان) ، حتى إن الشوارع كانت تخلو من المارة ، فى زمن عرضه ، وتألق فيه (عادل إمام) ، وهو يؤدى دور الشاب البسيط ، الذى وجد نفسه أمام موقف يفوق إمكانياته ، فلجأ إلى مخابراته ، التى أدارت صراعًا عبقريًا مع العدو ، وربحته فى النهاية ، لتحقق انتصارًا جديدًا على المخابرات الإسرائيلية ... وتعود أهمية هذا المسلسل بالتحديد ، إلى أنه قد

وضع المشاهد أمام حالة جديدة من دراما الجاسوسية ، إذ لم يكتف عم (صالح) بنقل تفاصيل العملية الاستخباراتية ، وإنما صنع خلفية اجتماعية ممتازة لبطله (جمعة الشوان) ، وجعلك تشعر به ، وبحياته ، ومعاناته ، ومشكلاته ، وتتفهم مبررات سفره ، وتعامله مع مندوب المخابرات الإسرائيلية ، ثم تتفاعل مع موقفه ، عندما قرر ، مع كل ما يمر به من أزمات ، أن يتخلى عن كل إغراءات العدو ، ويمد يده إلى وطنه .. وكما كان فيلم (الصـعود إلى الهـاوية) عـلامة فاصلة ، فى سينما الجاسوسية ، على الشاشة الكبيرة ، صار مسلسل (دموع فى عيون وقحة) ، علامة فاصلة فى دراما الجاسوسية ، على الشاشة الصغيرة ... فبعدها لم يكن من الممكن إنتاج مسلسلات ساذجة المعنى ، أو بسيطة المضمون ، وصار المسلسل هو النموذج ، الذى ينبغى أن تسير عليه المسلسلات التالية ... ولكن دراما الجاسوسية لم تحظ بعدها بالاهتمام الكافى ، على الرغم من نجاح مسلسل (دموع فى عيون وقحة) ، وإعادة عرضه أكثر من مرة ، فقد جاءت الأعمال التالية للمسلسل ضعيفة ، ودون المستوى ، مما أدى إلى انصراف المشاهدين ، عن هذه النوعية من الأعمال ، حتى عاد عم (صالح) مرة أخرى ... فذات يوم ، طالعتنا مجلة المصور بالحلقة الأولى ، من رائعة عم (صالح) ، ودرة دراما المخابرات (رأفت الهجان) ،

وهى رواية مأخوذة من واقع ملفات المخابرات المصرية ، عن شخصية (رفعت الجمال) ، الذى تم تجنيده ، فى زمن سابق لإنشاء المخابرات العامة رسميًا ، من أجل رصد تحركات اليهود المصريين بعد الثورة ، خاصة أن (إسرائيل) كانت تشعر أن الثورة المصرية نقطة خطر فى مسارها ، وكان معظم اليهود المصريين يأزرونها ، فى ذلك الحين ، مما وضع فكرة زرع عين للأمن وسطهم ، ومع سقوط (رفعت) فى قبضة الأمن ، ومع ما يتمتع به من ذكاء ، وبراعة ، وقدرة على الاحتيال على الآخرين ، تم إقناعه بالعمل لحساب الأمن المصرى ، مقابل العفو عن بعض تجاوزاته السابقة ، ثم ومع نجاح تقمصه ، واندماجه فى المجتمع اليهودى ، والذى تزامن مع قرار إنشاء المخابرات المصرية ، تم إعداده للسفر إلى (إسرائيل) ، كعميل مزروع هناك ؛ بحيث يصبح عينًا نافذة للمخابرات المصرية ، فى قلب المجتمع الإسرائيلى ... ولقد لاقت رواية عم (صالح) رواجًا مدهشًا ، ونجاحًا عظيمًا ، مما أسفر عن تحويلها إلى مسلسل تليفزيونى ، يعد الأشهر ، بين كل دراما الجاسوسية على الشاشة الصغيرة ، حتى يومنا هذا ، على الرغم من ميزانية إنتاجه المحدودة ، وديكوراته البسيطة ، ولكنه جذب المشاهدين من اللحظة الأولى ، مع مشهد موت البطل ، الذى بدأت به الأحداث ، والذى جمع النجمين (محمود عبد العزيز) و(يسرا) ، والذى

كان يفترض منه أن يكون بمثابة خطأ دراميًا إذ إنه ليس من الطبيعى ، أن تتابع دراما جاسوسية ، ينبغى أن تشعر فيها بالقلق على البطل ، فى حين أنك تعلم ، من المشهد الأول ، أنه قد مات فى فراشه ، فى سن متقدمة ، ودون أن ينكشف أمره ولكن المشاهد حول وجهة تفكيره ، مع تلك البداية ، إلى سؤال مختلف تمامًا ، وهو : كيف نجح فى أن ينتحل شخصية يهودى ، ويحيا كل هذا الوقت فى (إسرائيل) ، ويكون كل هذه العلاقات ، دون أن ينكشف أمره ؟!... ولأن الأحداث قد انتقلت ، من هذه المفاجأة الأولى ، إلى متابعة كيفية العثور على (رفعت الجمال) ، أو (رأفت الهجان) ، كمـا أسـماه عم (صالح) ، ومبررات اختياره ، وخطوات تدريبه على مهمته ، فقد شغف المشاهد بهذا العالم الغامض ، وأساليبه الدقيقـة غيـر المباشرة ، وانبهر بتطورات الموقف ، وسيطرة المخابرات المصرية على رقعة اللعبة ، فى كل خطواتها ، وانحبست أنفاسه مع المواقف ، التى واجهت (رأفت) ، فى مرحلة إعداده ، وتلاحقت نبضاته ، مع كل مواجهة ، مع عيون (الموساد) فى (مصر) ... وأخيرًا رقص الكل طربًا ، مع مشـهد النهـاية ، عندما كان (رأفت) يودع رجل المخابرات (محسن ممتاز) ، قبيل رحيل سفينته من (مصر) مباشرة ... ومرة أخرى خلـت الشوارع من المارة تقريبًا ، وصمتت الأصوات فى المقاهى ، مع زمن عرض الجزء

الأول من (رأفت الهجان) ، ونجح عم (صالح) ، للمرة الثانية ، فى أن يصنع من الجاسوس شخصية ثلاثية الأبعاد ، تشعر بها ، وتعيش معها ، وتتعاطف مع كل خطوة لها ، وتفرح بنجاحها ، وتحزن كلما واجهت الخطر ... الأهم من هذا أن مسلسل (رأفت الهجان) ، وما صاحبه من نجاح مبهر ، قد أعاد الحيوية فى قوة ، إلى دراما الجاسوسية ، سواء على الشاشة الكبيرة ، أو الصغيرة ، وشهدت السينما موجة من أفلام الجاسوسية ، منها تلك الأفلام التى أشرنا إليها من قبل ، للفنانة (نادية الجندى) ، مع أفلام استغلت نجاح (محمود عبد العزيز) ، فى أداء دور الجاسوس ، مثل (إعدام ميت) ، وأفلام أخرى للفنان (نور الشريف) وغيره ... ثم جاء الجزء الثانى من مسلسل (رأفت الهجان) ، والذى يبدأ بوصوله إلى (إسرائيل) ، ومراجعة الأمن له هناك ، ثم سار معه فى مشوار حياته ، حتى استطاع مد جذوره فى المجتمع الإسرائيلى ، وما صحب هذا من علاقات عاطفية ، خلبت لب المشاهد ، وسحرته بعالم من الغموض ، والأسرار ، والرومانسية ، والمغامرة ، والخطر ... وكالمعتاد ، سال لعاب عدد من كبار الفنانين ، على دراما الجاسوسية ، وانضم إليهم المخرجون ، وشركات الإنتاج ، وبدأ التهافت على أعمال عم (صالح) ، فظهرت مسلسلات مثل (الحفار) ، والذى لم يحظ بأى نجـاح يذكر ، على الرغم من قوة مؤلفه

(صالح مرسى) ، وقوة العمل الأدبى المطبوع ، و(الثعلب) للكاتب (إبراهيم مسعود) ، والذى لاقى المصير نفسه ، مع عدد من أفلام السينما ، التى لم ترق أبدًا لمستوى أول أفلام دراما الجاسوسية الحقيقية (الصعود إلى الهاوية) ... ومع عرض الجزء الثالث من (رافت الهجان) ، والذى لم يلق نفس نجاح الجزأين السابقين ، كانت هناك عدة أعمال من دراما الجاسوسية ، على الشاشتين ، تحاول التفوق عليه ، أو حتى اللحاق به ، إلا أنها ، وعلى الرغم من ضعف الجزء الثالث عما سبقه ، لم تستطع الفوز بنصيب إلى جواره ... ثم ، ومع نهاية التسعينيات ، هدأ سباق دراما الجاسوسية إلى حد ما ، وانشغل الكل بدراما الفساد السياسى ، التى صارت سمة من سمات ذلك العصر ، وراحت الشاشتان تتحولان إلى صرخة شعب ، يجأر مما يحيط به من فساد ، كاد أن يسلبه حتى الانتماء لوطنه ... ثم فجأة ، ومع الألفية الثالثة ، دبت الروح مرة أخرى فى دراما الجاسوسية على الشاشتين ، وعادت مسلسلات الجاسوسية تشق طريقها ، وسط سباق الدراما الرمضانية ، والتى صارت الدراما الوحيدة ، التى يسعى إليها منتجو الشاشة الصغيرة ، ولكن الأعمال هذه المرة ، على الرغم من ميزانية إنتاجها الضخمة ، التى تفوق بخمسين ضعف على الأقل ، ميزانية الجزء الأول من (رأفت الهجان) ، ومن حشد عدد هائل من النجوم فيها ، ومن

مشاهدها العديدة ، التى يتـم تصوير معظمها خارج (مصر) ، لم تكن بنفس جودة ونجاح المسلسلات القديمة ، ربما لأن مخرجيها ، على الرغم من تاريخهم العريق ، لم يحاولوا فهم واستيعاب قواعد ونظم المخابرات ، والاستعانة بمن يرشدهم إليها ، كما كان يفعل (كمال الشيخ) و(يحيى العلمى) قديمًا ، لذا فقد جاءت التصرفات الأمنية فى المسلسلات الحديثة ، أقرب إلى تصرفات البحث الجنائى ، منهـا إلى تصرفات استخباراتية دقيقة ومدروسة ، وبدا بعضها ساذجًا ، إلى حد لا يصلح حتى لخفير نظامى ، فما بالك برجال مخابرات ، يواجهون خصومًا محترفين طوال الوقت !!... والأمـر الذى أثار المشاهدين ، فى دراما الجاسوسية الجديدة ، هى انفصال المشاهد عن زمن الأحداث ، على نحو لا يمكن وصفه إلا بأنه مستفز ، فالأحداث تدور فى الستينيات ، أو أوائل السبعينيات ، وعلى الرغم من هذا ، يستخدم من فيها سيارات حديثة ، تعـود إلى الألفيـة الثالثة ، ويجرون اتصالاتهم بهواتف محمولة ، لم توجد قبل التسعينيات ، وعبر أجهزة فاكس ، تم اختراعها فى الثمانينيات ، ويسيرون فى شوارع بها لوحات رقمية مضيئة ، وفى محال تستخدم أجهزة كمبيوتر محمولة ومتطـورة ، ثم يدور الحديث طـوال الوقت باعتبار أن كل هذا يعد لحرب أكتوبر 1973م ، وكأن المشاهد سيساير الأحداث ، أو يغض النظر عما يراه ... وهكذا حققت

دراما الجاسوسية فى (مصر) ، حالة فريدة من نوعها ، فى أى مكان فى العالم ، إذ بدأت قوية جذابة ، ثم راحت تنحدر ، حتى صارت هزيلة هزلية ... كل هذا و(جيمس بوند) ، الذى تتطوّر أفلامه فى سرعة وقوة ، مازال يواصل نجاحه ، ويواصل جذب المشاهدين ، وحصد الإيرادات ، وإثبات أنه ، وعلى الرغم من كل الانتقادات ، التى وجهت له عبر تاريخه ، مازال أشهر وأنجح جاسوس عرفته السينما ، فى كل عصورها .... الجاسوس الذى حصل هذا العام على لقب لم يفز به أحد من قبل ... لقب (جاسوس نصف القرن) .

* * *

الستار الأسود

(سلسلة داخل سلسلة)

2



1 ـ حبيبتى ...

« حبيبى » ...

امتلأ قلبى بتوتر شديد ، عندما سمعت صوتها ينادينى ...

فى الماضى ، كان قلبى يختلج فرحًا ، كلما سمعت صوتها ، فى أية لحظة من الليل أو النهار ....

كنت أحبها ...

أحبها من كل قلبى وكيانى ...

وكنت أعشق صوتها العذب ، كلما نطق باسمى ، أو همس بحبى ...

أما الآن ، فالأمر يختلف ...

لم أشعر بها وهى تقترب منى ، ولكننى حاولت تجاهل هذا ، متظاهرًا بالانهماك فى الرسم الهندسى ، الذى يفترض أن أقدمه لرئيسى ، فى الصباح الباكر ، ولكننى لم أستطع السيطرة على التوتر المتزايد فى أعماقى ، وخاصة عندما سمعت صوتها خلفى مباشرة ، وهى تهمس :

ــ اشتقت إليك .

تجاهلت عبارتها مرة أخرى ، لعلها تنصرف وتتركنى لحالى ، ولكنها واصلت ، دون أن تبالى بتجاهلى لها :

ــ أمازلت تعمل ، حتى ساعة متأخرة .

غمغمت فى توتر :

ــ المفترض أن أقدم هذا ، فى الصباح الباكر .

همست فى نعومة :

ــ ولكننى هنا .

انعقد حاجباى ، وأنا أقول ، فى توتر امتزج بشىء من الحدة :

ــ تأتينى دومًا دون موعد .

قالت فى نعومة :

ــ آتى كلما اشتقت إليك .

رأيتها تدور فى نعومة حــول مائدة الرسم ، وتنحنى لتلقى نظرة على الرسوم الهندسية ، قبل أن تبتسم ابتسامة كبيرة ، وتقول :

ــ تشبه فيلا أحلامنا .

فى الماضى كانت ابتسامتها هذه تسحرنى ، أما اليوم ...

« أمازلت تذكر أحلامنا ... »

قالتها بنفس النعومة ، فغمغمت ، محاولاً إبعاد نظرى عنها :

ــ كانت مجرد أحلام .

حمل صوتها رنة حازمة ، وهى تقول :

ــ الأحلام يمكن أن تصبح حقيقة ، مع قليل من الإرادة ...

نفس العبارة التى كانت ترددها على مسامعى دومًا ، عندما كنا معًا ...

نفس الرنة الحازمة فى صوتها ، والتى تشعرنى بأننى تلميذ يقف أمام أستاذته ، التى تلقنه درسًا فى الحياة ...

« الأحلام تتغير ، مع مرور الوقت ... »

قلتها فى شىء من العصبية ، فاعتدلت ترمقنى بنظرة غاضبة ، وهى تقول :

ــ يبدو أنك لم تعد تحبنى .

زفرت فى توتر ، قائلاً :

ـ أرجوك ... أنا منهك فى عملى .

رمقتنى بنفس النظرة ، قبل أن تقول ، فى شىء من الحدة :

ـ كنت تعدنى دومًا بأنك لن تحب سواى .

لم أحاول التعليق على عبارتها ، متظاهرًا بالانهماك فى الرسم ، فتابعت ، وحدتها تتزايد :

ـ لم تعد حتى ترغب فى التحدث إلىّ ..

غمغمت فى توتر :

ـ أهذا وقت الحديث عن الحب ؟!

قالت فى عصبية :

ـ كل الأوقات تناسب الحديث عن الحب .

قلت فى حدة :

ـ وماذا عن وقت العمل ؟!

مالت نحوى ، على نحو ضاعف من توترى ، وهى تقول :

ـ إنه أفضل وقت للحديث عن الحب .

كانت قريبة منى ، على نحـــو أشعرنى ببرودة فى أطرافى ، فاعتدلت لأبعد وجهى عنها ، وأنا أقول :

ـ لو لم يتسلم رئيسى هذا الرسم صباح غد ، قد أفقد وظيفتى .

اعتدلت بادية الغضب ، وهى تقول :

ـ يبدو أنك قد نسيت أننى من ساعدك فى الحصول على هذه الوظيفة ، التى ترفض اليوم التخلى عنها من أجلى .

كنت أشعر بتوتر بالغ ، كلما نظرت إليها ، فى الأشهر الأخيرة ، وعلى الرغم من هذا ، فقد أجبرت نفسى على النظر إليها ، وأنا أقول :

ـ لم أنس بالتأكيد ، ولكن ....

لم أستطع إتمام عبارتى ، فقالت فى غضب :

ـ ولكنك نسيت بالفعل .

هززت رأسى ، قائلاً فى توتر ، كاد يبلغ ذروته :

ـ أنت تعلمين أن الظروف كلها تغيرت .

اكتسى وجهها بغضب شديد ، وهى تقول :

ـ الظروف أم القلب ؟!

تطلعت إليها فى صمت ، ودون أن أنبس ببنت شفة ، فتابعت فى حدة :

ـ إنها (بثينة) .... أليس كذلك ؟!

شعرت بارتباك حقيقى ، وأنا أشيح بوجهى ، قائلاً :

ـ (بثينة) مجرد زميلة عمل .

خشيت حقًا النظر إلى وجهها ، وهى تقول :

ـ محاولة سخيفة .

أدرت رأسى فى بطء ، محاولاً النظر إليها ، وكل ذرة فى كيانى تمنعنى من هذا ، وحتى لسانى عجز عن قول أى شىء ، فأضافت هى فى غضب :

ـ تنسى أحيانًا أننى أستطيع رؤية الحقيقة فى عينيك .

مرة أخـرى عجـز لسانى عـن النطق ، فدارت حولى بنفس النعومة ، وهى تقول :

ـ أسـلوبك فى التعامل معهـا ، ونظراتك الحالمة إليها ، وصوتك المفعم بالحرارة ، عندما تتحدث إليها ... كل هذا لا يوحى أبدًا بأنها مجرد زميلة عمل .

غمغمت فى صعوبة :

ـ الواقع أننى ...

قاطعتنى فى حدة :

ـ الواقع أن تلك الحقيرة قد استغلت غيابى ؛ لتتقرب منك ، وتلقى شباكها حولك ، وتوقعك فى حبائلها ، وتحتل مكانى فى قلبك .

غمغمت فى عصبية :

ـ لا تصفيها بالحقيرة .

هتفت :

ـ أرأيت؟!

مرة أخرى أشحت بوجههى ، دون أن أجيب ...

كنت أعلم أنها ستكشف كذبى ، مهما قلت أو فعلت ...

ولم أستطع أن أبوح لها بالحقيقة ...

فأنا بالفعل غارق فى حب (بثينة) ...

غارق فى عشق رقتها ، وحنانها ، وبساطتها ...

أذوب مع ابتسامتها العذبة ...

أهيم مع كلماتها الرقيقة الدافئة ...

أعشق مجرد التواجد معها فى مكتب واحد ...

إنها بالفعل حبيبتى ...

« لقد وعدتنى بأنك لن تحب سواى ... »

قالتها فى ضراعة باكية ، فالتقطت نفسًا عميقًا ، فى محاولة لتهدئة أعصابى ، قبل أن أغمغم :

ـ أنت تعلمين أننى قد حاولت .

قالت فى مرارة :

ـ المحاولة لا تكفى .

غمغمت فى عصبية :

ـ انفصالنا لم يكن بإرادتى .

قالت فى لهفة :

ـ لو أنك تقصد المشاكل المادية ، فمن الممكن أن ...

قاطعتها فى حدة :

ـ تعلمين أننى لم أقصد هذا .

تراجعت فى أسى ، قائلة :

ـ أنسى أحيانًا .

التقطت نفسًا عميقًا آخر ، وقلت :

ـ لقد احتملت فترة طويلة ، ولكن من الضرورى أن أواصل حياتى .

رمقتنى بنظرة حزينة ، وهى تقول :

ـ مع (بثينة) ؟!

خفضت عينى ، وانا أتمتم فى توتر :

ـ هى أو غيرها .

صمتت لحظات ، قبل أن تقول فى حزن :

ـ هى أفضل من غيرها .

شعرت بصوتها يبتعد عنى ، وهى تضيف :

ـ كانت صديقة عمرى على الأقل .

بقيت صامتًا ، لا أحاول التعليق على عبارتها ، حتى انصرفت ، وأيقنت أنها لم تعد هناك ، فالتقطت نفسًا عميقًا آخر ، وتطلعت إلى لوحة الرسم الهندسى ...

نفس الحوار فى كل ليلة ...

ونفس النهاية ...

أعترف أننى كنت أحبها من كل كيانى ...

ولكن الحياة يتحتم أن تستمر ...

وتساءلت وأنا أعاود عملى : هل سينتهى هذا العذاب يومًا ، لو أننى تزوجت (بثينة) ، وواصلت حياتى ، أم إن حبيبتى السابقة ستواصل زياراتها اليومية لى ، منذ أن ....

ماتت .

* * *

2 ـ زهور الربيع ....

« هل تؤمن بالأشباح والعفاريت ؟!... »

لم يكد (برعى) يسمع السؤال ، من تلك الصحفية الشابة ، التى ألقته عليه فى اهتمام ، حتى انفجر يقهقه ضاحكًا ، وهو يشير بكلتا يديه ، قائلاً :

ـ أية أشباح وأية عفاريت يا آنسة ؟!... إننى تربى أبًا عن جد ، ولم أختبر مثل هذه الأشياء فى حياتى قط ، على الرغم من أننى أقيم وسط المقابر ، منذ وعيت عيناى الدنيا .

بدت الصحفية الشابة أكثر اهتمامًا ، وهى تسأله :

ـ إذن فأنت تعتبر كل هذا مجرد خرافات .

هتف فى حماس :

ـ بالتأكيد .

ثم مال نحوها ، مستطردًا :

ـ هذه أمور يتداولها العامة ، تعبيرًا عن خشيتهم من الموت ، أما نحن الذين نحيا مع الموت ، فهى لا تؤثر فينا قط .

قالت الصحفية الشابة ، وهى تنهى حديثها :

ــ من الواضح أنه لديك فلسفة خاصة .

أشار بسبابته ، قائلاً :

ــ بل أنا رجل واقعى ، خبر الحياة طويلاً ، وليس لدىَّ مكان للخرافات ومخاوف الطفولة .

أنهت الصحفية الشابة حديثها ، وغادرته وهى تسرع الخطى ؛ حتى تخرج من منطقة المقابر ، قبل غروب الشمس ، فتابعها فى سخرية ، مغمغمًا :

ــ ويقولون إن الصحافة تتابع الأمور المهمة .

هز كتفيه مستنكرًا ، واستنشق الهواء فى قوة ، ثم سعل مرتين ، بسبب الأتربة التى تميز دومًا هواء موسم الربيع ، ودلف إلى منزله ، وهو يهتف بزوجته ، لتعد له طعام الغداء ...

ومع مهبط الليل ، ساد منطقة المقابر هدوء وسكون شاملان ، اعتادهما (برعى) منذ طفولته ، وجلس هو على باب منزله الصغير ، الذى يتوسط المقابر ، يدخن أنفاس الشيشة فى استمتاع ، ويسعل كل حين وآخـــر ، مفسدًا سكون وهدوء المنطقة ، التى

خلت تمامًا من الناس ، مع اقتراب عقارب الساعة من منتصف الليل ، فنهض يلملم أدواته ، استعدادًا للنوم ، و ...

وفجأة ، تناهت تلك الأصوات إلى مسامعه ...

أصوات واضحة ، لطفلين يمرحان وسط المقابر ، وضحكاتهما البريئة تتردد فى المكان ، على نحو كان يمكن أن يرقص له قلبه طربًا ، لو أنه سمعه فى مكان آخر ، أو وقت آخر ...

وبكل دهشته ، سار (برعى) بين المقابر ، متتبعًا أصوات الطفلين وضحكاتهما ، حتى لاحا له أخيرًا ، وهما يعدوان فى مرح ، حول قبر حديث نسبيًّا ، لزوجة شابة ، لقيت مصرعها فى سن مبكرة ، بعد صراع مع مرض عضال ...

كانا يطلقان ضحكاتهما المرحة ، وهما يتسابقان فى سعادة ، فى هذا الوقت المتأخر ، فهتف بهما ، وقد حول توتره إلى عصبية مفتعلة :

ــ ماذا تفعلان هنا ؟!

للوهلة الأولى ، خيل إليه أنهما لم يسمعا نداءه ، إلا أنهما سرعان ما التفتا إليه ، وتطلعا نحوه فى خوف ، جعلهما يقتربان من بعضهما البعض ، ويتلاصقان فى خوف ...

كانا طفلاً وطفلة ، لا يتعـدى عمرهما الخامسة ، ويتشابهان إلى حد كبير ، بملامحهما الجميلة البريئة ، التى جعلتهما يبدوان كزهرتين يانعتين من زهور الربيع ، نبتتا وسط الموت ، حتى إنه شعر بالعطف والشفقة نحوهما ، فاقترب منهما ، وهو يقول فى حنان ، محاولاً تهدئتهما :

ـ من أنتما ؟!... من أين جئتما ، وماذا تفعلان هنا ؟!

تراجع الطفلان فى خوف ، وقد التصقتا ببعضهما أكثر ، فواصل اقترابه فى حذر ، وهو يقول فى حنان أكثر :

ـ لا تخافا منى ... اقتربا ... عندى لكما بعض الحلوى .

تراجع الطفلان فى خوف أكبر ، ثم افترقا فجأة ، ودار كل منهما فى اتجاه مخالف للآخر ، حول ذلك القبر الحديث نسبيًا ، فأسرع (برعى) نحوهما ، هاتفًا :

ـ لا تخافا .

دار حول القبر بدوره ، قبل أن يتوقف ذاهلاً ...

فعلى الرغم من أنه قد رآهما بعينيه ، وهما يدوران حول ذلك القبر ، إلا أن الساحة الصغيرة خلفه كانت خالية تمامًا ...

لم يكن بها أثر للصغيرين ...

أو لأى شخص آخر ...

ولثوان ، جمد (برعى) فى مكانه ، وشعر بأوصاله ترتجف ، فبسمل وحوقل ، وتلفت حوله أكثر من مرة ، قبل أن يغمغم مضطربًا :

ـ أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ... أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ..

دار حول القبر مرتين ، فلم يجد أدنى أثر للطفلين ، فبسمل وحوقل مرة أخرى ، ثم ابتعد فى خطوات سريعة ، عائدًا إلى منزله ...

ولكن فجأة ، سمع ضحكات الطفلين مرة أخرى ...

وفى رعـب ، لم يشـعر بمثله فى حياته قط ، التفت يحدق فيهما ...

كانا قـد عاودا لعبهما ، على النحـو نفسه ، وكأنهما يعيدان المشهد من بدايته ، وضحكاتهما تتصاعد فى مرح وسعادة ...

وفى هذه المرة ، وقف يحدق فيهما فى صمت ...

لقد مضى أكثر من عام ، منذ أودع طفلاً أحد هذه المقابر ، ولقد كان طفلاً واحدًا ، وليس طفلين ...

ثم إنه لم يؤمن يومًا بالأشباح والعفاريت ...

دار صراع عجيب فى داخله ، وهو يراقب الطفلين يمرحان ويلعبان ، ثم استجمع شجاعته ، ليقول فى صوت مرتجف :

ــ ماذا تريدان ؟!

لم يكن يأمل شيئًا من سؤاله ، إلا أنه فوجئ بهما يتوقفان فجأة ، فور أن نطق به ، ويلتفتان إليه فى صمت ، وعيونهما تحمل حزنًا شديدًا ، حار فى تفسيره ، فكرر عليهم سؤاله ، وقد بدأ يتماسك نسبيًا ...

ودون أن ينطق أحدهما بكلمة ، أشارا معًا إلى ذلك القبر الحديث ، ثم امتلأت عيونهما بالدموع ، على نحو جعله يتساءل فى حذر :

ــ أهى أمكما ؟!

علا نحيبهما فجأة ، وهما يتشبثان بالقبر ، ويبكيان فى حرارة ، أدمت قلبه ، فاتجه نحوهما ، قائلاً فى حنان مشفق :

ــ لا تبكيا .

مع اقترابه ، التفتا إليه بنفس الخوف السابق ، إلا أنهما لم يدورا حول القبر هذه المرة ، وإنما وثبا نحوه ، وجعلا جسد (برعى) يرتجف ، من قمة رأسه ، وحتى أخمص قدميه ، عندما اختفيا فى شاهده فجأة ...

ولقد ظل جسد (برعى) يرتجف ، لخمس دقائق كاملة ، بعد اختفائهما ، وعيناه المتسعتان تحدقان فى قبر المرأة ، قبل أن تنجح قدماه فى أن تتحركا نحو القبر ؛ ليفحصه فى خوف ، امتزج بحسه المهنى ...

ومع الوهلة الأولى ، أدرك أن يدًا قد عبثت بهذا القبر ، منذ فترة قريبة ...

وهى يد غير محترفة حتمًا ...

لقد حفرت وأزاحت بلاطة القبر فى عجالة ، ثم أعادت وضعها ، وأهالت عليها التراب ، دون أن تسقى الأرض بالماء كالمعتاد ...

كل هذا أدركه من النظرة الأولى ...

وكل هذا رواه لضابط نقطة الشرطة ، فجر اليوم التالى ...

وفى حضور رجال الشرطة ، تم فتح قبر المرأة ...

وكانت الصدمة ...

جثة المـرأة ترقد سـاكنة هادئة ، وإلى جوارها جثتان

لطفل وطفلة ، فى عمر الزهور ، يرتديان الثياب نفسها ، التر

رآهما (برعى) يرتديانها ، وهما يلعبان حول القبر ، فى الليل

السابقة ...

وعندما فحص الطبيب الشرعى المرافق الجثتين ، أشار إل

أن الطفلين قد لقيا مصرعهما قتلاً بالسم ، منذ ثلاثة أيام ...

وضرب برعى كفًا بكف ، وهو يستعيد ذكرى الليلة الماضية

فى حين بدأت التحقيقات حول واقعة القتل ...

وبسرعة راحت الحقائق تتكشف ...

فالمرأة هى أم الطفلين ، وقد تم قتلها بالسم أيضًا ، ليصبح

بعدها زوجها الحالى وصيًا على ولديها من زوج سابق ، لقر

ربه بعد ولادتهما بقليل ، وترك لها ولهما ثروة معقولة ...

وكان من الطبيعى أن يكون زوج الأم هو المشتبه فيه رق

واحد ، ولكن التحقيقات أثبتت أنه كان يعالج فى مستشفى بمدين

(الإسكندرية) ، خلال الأسبوع الـذى تمت فيه جريمة قتل زهرتى الربيع ...

وعلى الرغم من ثقة الجميع بأنه مدبر الحادث ، إلا أن أحدًا لم يستطع إثبات هذا ، وخاصة مع عدم العثور على الفاعل الأصلى ، فلم يكن هناك بد من إطلاق سراح زوج الأم ؛ لعدم كفاية الأدلة ...

وفى جلسته الليلية المعتادة ، بدأ (برعى) يجمع ساكنى المقابر من الأحياء حوله ، ويروى لهم قصته ، وكل منهم يضرب كفًا بكف ، حتى كانت تلك الليلة ...

كان القمر بدرًا ، والناس سئمت سماع قصته ، فانفضوا من حوله ، وجلس هو يدخن شيشته كالمعتاد ...

ثم لمح ذلك الرجل ...

رجل نحيل ، متوسط الطول ، يسير بخطوات مضطربة ، وسط المقابر ، وهو يهمهم بكلمات غير مفهومة ...

وعندما مر أمامه ، تعرفه (برعى) على الفور ...

كان زوج الأم ، بشحمه ولحمه ...

ولكنه كان يختلف تمامًا ، عـن آخـر مـرة رآه فيها ، قبيل الإفراج عنه مباشرة ...

أيامها كان واثقًا ، متغطرسًا ، يتحدث بنعرة عجيبة ، ويتحدى أن يثبت أى مخلوق تورطه فى جرائم القتل ...

أما هذه المرة ، فقد بدا ذاهلاً ، رث الثياب ، يسير كما لو أنه قد فقد كل شىء فى الدنيا ...

وفى فضول حذر ، تبعه (برعى) ...

كان يسير مباشرة نحو قبر زوجته ، الذى أعيد إغلاقه فى إحكام ...

ولم يفهم (برعى) ما يحدث ، فتقدم أكثر فى حذر ، ورأى الرجل يسقط على ركبتيه أمام القبر ، وهو يقول فى ضراعة بائسة :

ـ اجعليهما ينصرفان ... إنهما يزوراننى كل ليلة ، وأراهما يلعبان ويلهوان ، فى أماكنهما المعتادة .

سرت قشعريرة فى جسد (برعى) ، فأرهف سمعه أكثر والرجل يبكى فى انهيار ، ويلمس شاهد القبر ، مواصلاً :

ـ رجوتهما أن يرحمانى ، واعتذرت لهما عما فعلته ، فأشارا إلى صورتك ، وعلمت أنهما يطلبان منى القدوم إليك .

تحولت قشعريرة (برعى) إلى غضب ، جعله يرهف سمعه أكثر وأكثر ، والرجل يتابع ، فى انهيار تام :

ـ ولقد أتيت لأعترف أمامك ... لقد أستأجرت قاتلاً ، واخترعت موعد العلاج لتنفيذ جريمته ... أنا أعطيته السم ... نفس السم الذى قتلتك به ، عندما سافرت إلى (لبنان) ... أنا فعلتها ، أنا قتلتك وقتلتهما ... إننى أعترف ... ولكن ارحمينى ... اجعليهما يبتعدان عنى ...

شعر (برعى) بغضب شديد ، عندما سمع تلك العبارات الأخيرة ...

كان الرجل منهارًا بحق ، إلا أنه لم يشعر تجاهه بذرة من الشفقة ...

لقـد رأى أمامه وحشًا مفترسًا ، قتـل زوجتـه ، وزهرتين بريئتيـن ، دون ذرة مـن الرحمـة أو الشـفقة ، ببراءتهما وطهارتهما ...

ولقد كان يهم بالاتجاه نحـــوه ، ليعنفه فى شدة ، أو يلقى القبض عليه ، ويخبر الشرطة بما سمعه منه ، عندها لاحظ فجأة أمرًا عجيبًا ، جعل انتفاضة عنيفة تسرى فى جسده ...

لقد كانت بلاطة قبر المرأة ، التى أحكم إغلاقها بنفسه ، مرفوعة ...

وكان القبر مفتوحًا ...

وفى نفس اللحظة ، التى أدرك فيها هذا ، اتسعت عيناه عن آخرهما ، مع مرأى الطفلين ، وهما يظهران فجأة ، على جانبى الرجل ، الذى أصيب برعب شديد ، جعله يتراجع ، صارخًا :

ــ لا ... لا ... الرحمة .

كان الطفلان يتقدمان نحوه فى بطء ، جعله يهب واقفًا على قدميه ، وهو يتراجع نحو القبر المفتوح ، ملوحًا بذراعيه فى ارتياع ، هاتفًا :

ــ اتركانى ... لم أعد أحتمل ... لم أعد أحتمل ...

تعثرت قدمه فى بلاطة القبر مع تراجعه ، فاختل توازنه ، ورآه (برعى) يضرب بذراعيه فى الهواء ، بكل رعب الدنيا ، محاولاً التشبث بشىء ما ، قبل أن يهوى جسده كله داخل القبر ، ويسمع (برعى) صوت ارتطامه بأرضيته ...

ومع تأوهات الرجل داخل القبر ، التفت الطفلان ينظران إلى (برعى) وعيونهما تحملان براءة الدنيا كلها ..

لم ينطق أحدهما كلمة واحدة ، ولكن رسالتهما وصلت إليه بوسيلة ما ...

وكما لو أنه مسير ، استدار (برعى) عائدًا لمنزله ، والتقط دلوًا من الماء ، وكيسًا من الأسمنت ، وعـــاد بحمله إلى قبر المرأة ...

وعلى الرغم من أن الطفلين لم يغادرا مكانهما ، ولم يرفعا عيونهما عنه ، وقف بينهما يلقى نظرة على الرجل ، الذى حاول الخروج من القبر ، وهو ينظر إلى جثة المرأة فى رعب ، مرددًا فى انهيار :

ــ ارحمينى ... ارحمينى .

وبلا أية مشاعر تقريبًا ، وكأنما تضغط عليه قوة تفوق إرادته ، تجاهل (برعى) تأوهات الرجل ، ودفع بلاطة القبر ؛ ليعيدها إلى موضعها ، والرجل يصرخ فيه ، فى رعب لا مثيل له :

ــ ماذا تفعل ؟!... ماذا تفعل ؟! ..

ومتجاهلاً صرخاته تمامًا ، أغلق (برعى) القبر ، وراح يدع
بلاطته بخليط سميك من الأسمنت والماء ؛ ليحكم إغلاقه تمامًا
وصوت الرجل يتناهى إلى مسامعه ضعيفاً ، وهو يصرخ متوسلاً :

ــ أخرجنى من هنا ... لا تتركنى معهم ... أرجوك ...

وفى هدوء عجيب ، زاد (برعى) من كمية الأسمنت والرمال
حتى حجب صوت الرجل تمامًا ، ثم تراجع فى بطء ، وجلس
على شاهد قبر آخر ، يراقب قبر المرأة فى بلادة عجيبة ، فى
حين رفع الطفلان عيونهما إليه ، فى نظرة امتنان عجيبة
سرت لها قشعريرة باردة أخرى فى جسده ...

ثم فجأة ، حدث ما جعل قلبه يتوقف لحظة عن النبض ...

لقد شاهد تلك المرأة ...

شاهدها تقف على بلاطة قبرها هادئة ساكنة ، تنظر إليه
بنفس نظرة الامتنان ، وهى تفتح ذراعيها ...

وفى سعادة ، اندفع الطفلان نحوها ، فاحتضنتهما فى حنان عجيب ، قبل أن تمنحه نظرة امتنان أخرى ، ثم تغوص مع ولديها ، عائدة إلى قبرها ...

ولساعة كاملة ، ظل (برعى) جالسًا على شاهد القبر الآخر ، يحدق فى قبر المرأة ، دون أن ينبس ببنت شفة ...

منذ تلك الليلة ، واصل (برعى) جلسته المعتادة ، أمام منزله ، وسط المقابر ، يدخن شيشته فىَ هدوء وصمت ، محاولاً إقناع عقله بنسيان ما حدث ...

الشىء الوحيد الذى تغير ، هو أنه لم يعد يروى شيئًا لأى مخلوق ...

فقط أصبح أكثر اهتمامًا بنسمات الربيع ...

وزهور الربيع .

* * *

3 ـ شـــات ...

« العشاء يا (عبير) ... »

بلغ النداء مسامع (عبيرٍ) ، وهى تجلس أمام شاشة الكمبيوتر ، فانعقد حاجباها فى ضيق ، ومطت شفتيها فى امتعاض ، وهى تواصل الكتابة على لوحة الأزرار ؛ لتحكى لإحدى صديقات (الشات) ما حدث معها ، خلال رحلة الصيف فى الساحل الشمالى ...

وتكرر نداء الأم مرتين ، دون أن تجيب (عبير) ، فطرقت الأم باب حجرتها ، وهى تقول فى يأس ، يبدو أنها قد اعتادته :

ـ ألن تتناولى العشاء معنا ؟!

هتفت (عبير) ، دون أن تتوقف عن مواصلة (الشات) :

ـ كلا ... لقد تناولت شطيرة منذ قليل .

زفرت أمها ، مغمغمة :

ـ أنت وشأنك .

لم تبال (عبير) كثيرًا بضيق أمها ، التى يئست من محاولات انتزاعها من أمام الكمبيوتر ، الذى أدمنت الجلوس أمامه ، منذ تخرجت من كليتها ، منذ أكثر من عام ، لم تحاول خلاله البحث عن عمل ، ولا مرة واحدة ، وكأنها قد وهبت حياتها للكمبيوتر ، ولذلك (الشات) ، الذى صنعت منه حياتها الاجتماعية كلها ...

أما (عبير) فقد انتهت من (الشات) مع زميلتها ، ثم انتقلت إلى زميلة أخرى ، فى شغف غير طبيعى ، جعل الساعات تمضى ، وأسرتها تنام ، وهى مستمرة أمام الكمبيوتر ...

وعندما قررت أخيرًا ، مع اقتراب الفجـر ، أن تأوى إلى فراشها ، ظهر ذلك الزائر فجأة ، على صفحة (الشات) الخاصة بها ...

(ع . ج) ... هكذا عرف نفسه ، قبل أن يتحدث معها عن رحلتها الصيفية ...

واتسعت عيناها فى دهشة بالغة مستنكرة ...

إنها لم تعرف (ع . ج) هذا من قبل ، ولم تجر أى (شات) معه مسبقًا ، وعلى الرغم من هذا ، فهو يذكر لها أمورًا ، لم تخبرها حتى لأعز صديقات (الشات) ...

وفى غضب ، سألته (عبير) عمن يكون ...

وفى بســاطة ، أخبرها أنه شخص شديد الإعجــاب بها ، ويرغب فى صداقتها ...

وعلى الرغم من دهشتها واستنكارها ، دفع الفضول (عبير) إلى أن تسأله : كيف عرف كل هذه الأمور عنها ...

وفى سرعة مدهشة ، تفوق قدرة أى إنسان على الكتابة ، ظهر الجواب على الشاشة ...

« أنا أعرف عنك أكثر مما يمكنك تصوره ... »

لم يرق لها الجواب ، وفكرت لحظة فى إغلاق الكمبيوتر ، ولكن الفضول دفعها إلى أن تسأل ...

« مثل ماذا ؟!... »

وبنفس السرعة المدهشة ، ظهر الجواب ...

« أعرف أنك كنت تفكرين الآن فى (أشرف) ، ذلك الشاب الوسيم ، الذى التقيت به فى الساحل الشمالى ، والذى يمتلك سيارة سوداء ، من طراز (بى . إم . دابليو) ... »

خفق قلبها فى عنف ، وبدا لها الجواب مستفزًا ، فهى بالفعل كانت تفكر فى (أشرف) هذا ، ولا أحد سواها يعلم ، أو يمكن أن يعلم بهذا !!...

ولكن هناك من يمكن أن يستنتجه ...

إنه (أشرف) نفسه ...

ربما هو يمازحها ، واثقًا من أنها تفكر فيه طوال الوقت ، بعد أن بهرها بوسامته وشدة ثرائه ، منذ أقل من شهر ...

نعم ... هو (أشرف) حتمًا ؛ فهى لم تخبر أحدًا عنه ، حتى هذه اللحظة ...

إنه هو دون سواه ...

وبسرعة ، كتبت على الشاشة ...

« أنت (أشرف) ... أليس كذلك ؟!... »

وما إن رفعت سبابتها عن آخر حروف لوحة الأزرار ، حتى ظهر الجواب على الشاشة ...

« (أشرف) شاب تافه ، لا يستحقك ... »

أدهشتها سرعة ظهور الأجوبة ، فتراجعت لحظة فى مقعدها ، تحاول فهم ما يحدث ...

مستحيل أن يكون هذا شخص آخر ...

لا أحد يعلم بأمر (أشرف) سواها !!...

ولكن من يمكن أن يكون هذا ؟!...

وكيف يضع إجابات أسئلتها بهذه السرعة ؟!...

انعقد حاجباها فى شدة ، وهى تحاول البحث عن الجواب ...

ربما هو (أشرف) ، ولكنه يختبر مشاعرها نحوه ...

ربما ...

وربما أعد الإجابات كلها مسبقًا ، مستنتجًا حيرتها ، إزاء هذه المعلومات والأسئلة ...

من المستحيل أن يكون قد روى الأمر لأحد أصدقائه ، وتركه يعبث بها ...

مستحيل تمامًا ...

صحيح أنها لم تتعرفه جيدًا ، ولكنه لم يبد لها من تلك النوعية أبدًا ...

وفجأة ، وبينما عقلها منشغل بالبحث عن إجابات تساؤلاتها ، ظهرت عبارة على الشاشة ...

« لا تشغلى عقلك بالتفـكير ، فأنا لسـت صديقًا لذلك التافه (أشرف) ، الذى ينافسنى الإعجاب بك ... »

وانتفض جسدها فى دهشة وانفعال ...

كيف عرف ما تفكر فيه ؟!..

كيف ؟!...

كيف ؟!...

وبسرعة ، نقلت سؤالها إلى الشاشة ...

« هل تقرأ أفكارى؟!... »

وفى نفس اللحظة ، أتاها الجواب ...

« بالتأكيد ... أقرأ كل ما تفكرين فيه ... »

انعقد حاجباها فى شدة ، وفكرت فى أنه شاب عابث حتمًا ، يعلم أمر علاقتها بـــ (أشرف) ، بوسيلة ما ، ويستغل هذا لإخافتها والعبث بها ...

وفى ذهنهـــا ، قررت أن تفــكر فى أمها ، وتسأله أن يقرأ أفكارها ...

وقبل أن تمد أصابعها ، لكتابة العبارة ، فوجئت بكلمة واحدة تظهر على الشاشة ...

« فى أمك ... »

لم تكن قد كتبت العبارة بعد ، لذا فقد جعلها الجواب تثب من مقعدها ، وتتلفّت حولها فى خوف ، قبل أن تكتب ...

« من أنت بالضبط ؟!... أرجوك ... »

مضت لحظات من السكون ، وهى تنتظر الجواب فى لهفة ، ولكنها لم تحصل عليه ، طوال الدقائق الخمسة التالية ، فكتبت فى سرعة .....

« أين ذهبت ؟!... »

أتاها الجواب على الشاشة ، بأسرع مما تتوقع ...

« لماذا ؟!... هل افتقدتنى ؟!... »

انتفض جسدها مرة أخرى ، وترددت لحظة ، قبل أن تكتب فى حزم ...

« سأغلق الكمبيوتر الآن ... »

أتاها الجواب ، قبل أن تتم العبارة ....

« لن يمكنك هذا ... »

شعرت بعصبية شديدة ، وهى تقول لنفسها :

ــ من يظن نفسه ؟!... هل تصــور أننى لا أستطيع إغلاق الكمبيوتر ؟!... واهم هو ، لو تصور هذا .

وبكل العناد ، دفعت سبابتها ، وضغطت زر إغلاق الكمبيوتر ، و ...

ولم يستجب الجهاز ...

تراجعت فى دهشة ، وحدقت فى شاشة الكمبيوتر فى ذهول ، مع العبارة التى ارتسمت عليها ...

« ألم أخبرك ؟!... »

انتابها خوف شديد ، وهى تضغط زر إغلاق الكمبيوتر مرة ...

وثانية ...

وثالثة ...

ورابعة ...

وخامسة ...

ولم يستجب الكمبيوتر لأية محاولة ...

لقد ظلت شاشته مضاءة ، وحملت عبارة صارمة ...

« لن يمكنك إغلاق هذا الكمبيوتر ، وقطع (الشات) بيننا ، إلا بإرادتى أنا ... »

انتفض جسدها ، وهى تتساءل فى رعب ...

أهذا فيروس جديد ، من فيروسات الكمبيوتر؟!...

هل دس (ع . ج) هذا فى جهازها فيروسًا جديدًا ، يمنع إغلاق الكمبيوتر ؟!... ولكن كيف فعلها؟!... كيف ؟!...

حاولت أن تغلق صفحة (الشات) ؛ لتعيد فحص جهاز الكمبيوتر ، عبر برنامج مضاد للفيروسات ، إلا أن الصفحة أيضًا لم تستجب ، فى حين حملت الشاشة عبارة جديدة ...

« دعينى ألتقى بك أولاً ، وبعدها سيستجيب لك الكمبيوتر ... »

لم تحاول الرد على عبارته هذه المرة ، وجسدها ينتفض فى قوة ، وإنما تراجعت بمقعدها ، وراحت تحدق فى العبارة فى ذهول ، قبل أن تندفع فجأة ، وتنتزع قابس الكهرباء ، المتصل بالكمبيوتر ...

ووفقًا لأى مقياس فيزيائى فى الوجود ، كان المفترض أن يغلق هذا الكمبيوتر على الفور ، إلا أن هذا ــ وللعجب ــ لم يحدث !!...

مع غياب التيــار الكهربى ، ظلت شاشة الكمبيوتر مضاءة ، وتراصت عليها عبارة جديدة ...

« دعينى ألتقى بك أولاً ... »

كان جسدها كله ينتفض رعبًا ، وغمغمت بصوت مرتجف :

ــ ولكن هذا مستحيل !...

لم يكن جهازها مزوّدًا بميكروفون لنقل الصوت ، وعلى الرغم من هذا ، فقد جاءت العبارة التالية لتثير كل فزعها ...

« مع مثلى ، لا يوجد مستحيل !... »

راح جسدها ينتفض فى قوة ، وعجزت ساقاها عن حملها خارج مقعدها ، وعجز حتى حلقها عن الصراخ ، او الاستنجاد بأحد ...

وعلى الشاشة ، ظهرت العبارة نفسها تتكرر ...

« فقط دعينى ألتقى بك .... »

وبكل صعوبة ، غمغمت :

كيف ؟!...

أتاها الجواب على الشاشة ، وكأن (ع . ج) هذا يسمعها ...

« اطلبى منى أن ألتقى بك .... »

غمغمت فى رعب :

ـ متَى ؟!

ومرة أخرى أتاها الجواب فى سرعة ...

« الآن .... اطلبى منى الآن .... »

كان الرعب يملأ كيانها كله ، والدموع تنهمر من عينيها ، من شدة رعبها ، وعلى الرغم من هذا فقد غمغمت :

ـ فليكن ... لو أن هذا ينهى ما أنا فيه .

حملت الشاشة كلمة واحدة بحروف كبيرة ...

« اطلبيها ... »

هتفت بصوت مختنق :

ـ التق بى ... الآن ..

لم تكد تنطقها ، حتى انطفأت الشاشة فجأة ، ودوت فرقعة مكتومة فى الحجرة ، وهوى قلب (عبير) بين قدميها ، عندما ظهر شخص إلى جوارها بغتة ، وهو يقول :

ـ لم يكن من الممكن أن ألتقى بك ، دون أن تطلبيها صراحة .

واتسعت عينا (عبير) عن آخرهما ، فى رعب ما بعده رعب ، مع ذلك الوجه شديد الحمرة ، وعينيه المشقوقتين طوليًا كعيون الثعابين ، وتراجعت بمقعدها فى عنف ، فتهاوى بها ، وارتطم رأسها بطرف فراشها ، فسقطت فى عنف ...

واستيقظت ...

وفى رعب ، حدقت فى شاشة الكمبيوتر المضاءة أمامها ، والتى تحمل صفحة الشات الخاصة بها ، والتى ليس عليها أثر لمحادثاتها مع (ع . ج) هذا ...

وفى ذعر، تلفتت حولها ، قبل أن تطلق زفرة عصبية ، وتغمغم :

ـ يا إلهى !.... لقد كان كابوسًا رهيبًا ... لا ريب فى أن النوم قد غلبنى ، أمام شاشة الكمبيوتر ، فكان هذا الكابوس ..

ضغطت زر إغلاق الكمبيوتر ، فاستجاب لها فى يسر ، ونهضت إلى فراشها ، مع نسمات الصباح الأولى ، وهى تتمتم :

ـ لابد أن أقلل من ساعات جلوسى أمام (الشات) ... أمى كانت على حق ... هذا يصيب العقل بإجهاد شديد .

رقدت فى فراشها ، وهى تستعيد ذكرى ذلك الكابوس الرهيب ، وحاولت أن تبتسم ، وهى تغلق عينيها ، مغمغمة :

ـ ولكن لماذا (ع . ج) .... أى شىء يمكن أن يعنيه هذا .

« يعنى عفريت من الجن ... »

العبارة جعلتها تقفز من فراشها بكل رعب الدنيا ، ووجدته يقف أمامها ، وذيله يتلاعب خلفه ، وهو يبتسم بأنيابه الحادة ، قائلاً :

ـ هكذا يطلقون علينا ...

وصرخت (عبير) ...

وصرخت ...

وصرخت ...

ولم يسمعها أحد ...

على الإطلاق .

* * *

4 ـ الخــوف ...

المكان كله لا يوحى بالارتياح على الإطلاق ...

الضوء شديد الخفوت ...

الجدران شبه المتهالكة ...

رائحة الرطوبة التى تزكم الأنوف ...

أصوات الحشرات ، التى دفعها الربيع للتغازل ، فى موسمها السنوى ...

وهو لم يشعر بالراحة ، منذ جاء إلى المكان ...

ولكن الجميع قالوا : إنه سيجد علاجه هنا ...

وعليه أن ينتظر ...

ويحتمل ...

حاول أن يسترخى ، على ذلك (الشيزلزنج) القديم ، الذى اهترأت أطرافه ، ولكنه لم ينجح فى هذا أبدًا ...

ترى لماذا يثق الكل فى ذلك المعالج ؟!..

أية إنجازات يحملها تاريخه ، فى هذا المجال ؟!...

ولماذا هذا المكان ؟!..

لماذا ؟!...

شعر قلبه بذلك الخوف العجيب ، عندما تناهت إلى مسامعه أصوات المارة فى الخارج ، فانكمش فى مكانه ، واتسعت عيناه عن آخرهما ، ثم حاول أن يغلقهما ؛ ليقنع نفسه بأنه فى مكان آخر ...

ولكن أصوات المارة تزايدت ...

وشعور الخوف داخله تصاعد ...

وتصاعد ...

وتصاعد ...

وعلى الرغم منه ، وعلى الرغم من أن هذا غير معتاد ، وجد جسده يرتجف ، على الرغم من محاولاته التماسك ...

ثم شعر بوصول المعالج ...

وفى سرعة فتح عينيه ، يحدق فيه بشدة ...

كان شديد النحول ، غائر العينين ، شاحب الوجه ، أشعث الشعر ، يرتدى معطفًا كان يتمتع باللون الأبيض ، منذ عشر سنوات على الأقل ، وأسفله يبدو سروالاً من الجينز ، ضاع لونه من فرط القذارة ...

وبلا مبالاة ، جلس المعالج على مسافة نصف متر منه ، وأمسك ملفه ، وراح يقرأ أوراقه فى سرعة ، قبل أن يهز رأسه قائلاً :

ـ لم أر حالة كهذه من قبل أبدًا !!..

غمغم هو فى أسى ، يمتزج بلمحة خجل :

ـ أعلم هذا .

هز المعالج رأسه مرة أخرى ، ومال نحوه يسأله :

ـ لماذا تخاف منهم ؟!

أجابه فى أسى :

ـ لست أدرى ...

سأله :

ـ هل تتصور أنهم سيحاولون إيذاءك ؟!..

تساءل ، وهو يزداد انكماشًا :

ـ ولِمَ لا ؟!...

هز المعالج كتفيه هذه المرة ، وهو يقول :

ـ لأنه ما من سبب لهذا .

غمغم :

ـ لديهم سبب بالتأكيد .

قال فى هدوء :

ـ ليس إن لم تمنحهم أنت إياه ...

تنهد فى توتر ، وبدا له ذلك (الشيزلونج) القديم ، وكأنه تحول إلى سرير من المسامير الحادة ، يؤلم ظهره ، وهو يقول :

ـ الخوف جزء من طبيعتهم أيضًا .

هز المعالج كتفيه ، وقال :

ـ الخوف هو المحرك الرئيسى ، لكل كائن فى الوجود .. يخاف البرد والرياح ، فيسعى للحصول على مسكن يؤويه .. يخاف الجوع ، فيبحث عن طعام يأكله ... يخاف المرض ،

فيسعى لملبس يقيه ... حتى عندما يحصل على كل هذا ، يخاف أن يخسره ، فيواصل عمله للحفاظ عليه .

غمغم فى توتر :

ـ لست أقصد هذا النوع من الخوف .

قال المعالج فى هدوء :

ـ لعلك تقصد ذلك الخوف السلبى ، الذى يعجز معه المرء عن العمل والكفاح ، فيخسر كل شىء ..

هز رأسه فى قوة ، قائلاً :

ـ ولا هذا أيضًا .

تراجع المعالج فى مقعده فى ضجر ، وهو يسأله :

ـ أى خوف تقصد إذن ؟!

صمت لحظات ، عاد خلالها ينظر إلى الجدران المتشققة ، والسقف الذى يكاد يسقط على رأسه ، والباب المتماسك بالكاد ، قبل أن يقول فى خفوت :

ـ الخوف من المجهول .

مط المعالج شفتيه ، وهز رأسه ، قائلاً :

ـ هذا نوع من الخوف الطبيعي .

غمغم هو فى دهشة :

ـ حقًّا ؟!... أيوجد خوف طبيعى ؟!

أجابه فى سرعة :

ـ بالتأكيد .

ثم اعتدل فى مقعده ، مضيفًا :

ـ كل مخلوق لديه مخاوف طبيعية ، هى التى تحدد مساره فى الحياة ، وقدرته على تجاوز ما يواجهه من عقبات ... والخوف من المجهول هو أكبر هذه المخاوف ؛ لأنك تخشى ما لا تدركه ، بأكثر مما تخشى ما تدركه ، والوسيلة الوحيدة ؛ لكسر الخوف من المجهول ، هى ألا يصبح مجهولاً .

سأله فى لهفة متوترة :

ـ وكيف ؟!

مال المعالج نحوه ، مجيبًا فى حزم :

ـ بأن نواجهه .

امتقـع وجهـه ، وتراجع يرقـد مـرة أخرى ، على ذلك (الشيزلونج) القديم ، وهو يغمغم فى خوف :

ـ نواجهه ؟!

أومأ المعالج برأسه إيجابًا مرتين ، ثم اعتدل ، قائلاً :

ـ هذا أشبه بحجرة مغلقة ، فى منزل كبير ... حجرة لم يفتحها أحد من قبل ... والكل يخشى المبادرة بمحاولة فتحها ، فتظل دومًا مغلقة ، لا يقترب منها أحد ، حتى يجرؤ شخص على فتحها يومًا ، فيجد أنها حجرة خالية ، لا خوف منها ... بل قد تكون الحجرة الوحيدة ، التى تدخل منها الشمس ..

امتقع وجهه ، وراحت أطرافه ترتجف ، وهو يقول :

ـ هل تعنى أنه من الضرورى أن أواجههم ؟!

عاد يومئ برأسه ، قائلاً :

ـ هذا هو الحل الوحيد .

اتسعت عيناه ، وهو يزداد انكماشًا على ذلك (الشيزلونج) القديم ، فاكتسب صوت المعالج صرامة ، وهو يقول :

ـ اخرج الآن وواجههم ... أثبت لنفسك أنك لا تخاف منهم ، وربما خافوا هم منك .

حاول أن يتخيل الفكرة ، ولكن الخوف فى أعماقه تصاعد ؛ لمجرد تصورها ...

تصاعد ...

وتصاعد ...

وتصاعد ...

على الرغم من كل محاولاته لمقاومته ، لم يستطع منع تصاعده ، فدفن وجهه بين كفيه ، وهو يهتف :

ــ لا ... لن يمكننى هذا .

رمقه المعالج بنظره ، تجمع ما بين الدهشة والشفقة والازدراء ، قبل أن يقول :

ــ لا يوجد سبيل سوى هذا .

قالها فى صرامة شديدة ، فأبعد هو كفيه عن وجهه ، وحدق فيه ، متسائلاً فى صوت مرتجف :

ــ وماذا عن العواقب ؟!...

هز المعالج رأسه فى قوة ، وهو يقول بنفس الصرامة :

ــ لا توجد أية عواقب .

تساءل بصوت أكثر ارتجافًا :

ــ وماذا لو فشلت ؟!

أجابه المعالج ، وهو يلملم أوراق التقرير ، وكأنه قرر إنهاء جلسة العلاج :

ــ الخوف من الفشل دافع لتقدم أى كائن ، ولو أنك خشيت الفشل ، فستبذل جهدك لتفاديه ، ولتحقيق النجاح .

ثم بدا كأنه قد فقد أعصابه فجأة ، وهو يضيف :

ــ ثم إنه لا خيار لديك ... لابد أن تحاول .

كان قد لملم أوراق الملف ، ونهض وهو يحمله ، فحاول هو النهوض بدوره ، من ذلك (الشيزلونج) ، وهو يغمغم :

ــ مازلت خائفًا منهم .

كان المعالج يهم بالانصراف ، عندما سمع هذه العبارة ، فالتفت إليه ، يسأله فى صرامة :

ــ لماذا ؟!... ما الذى يمكن أن يفعلوه ؟!

تردد ، وهو يجيب :

ــ ربما طاردونى .

أجابه المعالج ، بكل ضجره :

ــ لن يفعلوا بالتاكيد .

قال فى توتر :

ــ وماذا لو حاولوا قتلى ؟!

هتف المعالج :

ــ ألم أقل لك : إننى لم أر حالة كهذه أبدًا !!!

ثم مال نحوه ، مضيفًا :

ــ لن يقتلوك حتمًا .

وانعقد حاجباه بشدة ، وهو يضيف :

ــ لأنك بالفعل ميت ... أنت شبح ... ألم تستوعب هذه الحقيقة بعد ؟! لا تخاف الأحياء .. هم من ينبغى أن يخافوا منك ... حاول أن تستوعب ... أنت شبح ... شبح ...

كان قد استوعب هذه الحقيقة بالفعل ، ولكنه مازال يحتفظ فى أعماقه بتلك اللمحة الباقية من الحياة ...

بالخوف .

* * *

5 ــ أنت عمرى ...

تلفت الدكتور (وجدى) حوله فى حذر ؛ ليطمئن إلى خلو قسم الحالات الحرجة ، فى المستشفى الخاص ، الذى يعمل فيه ، من أى شخص ، يمكن أن ينتبه إليه ، فى هذه الساعة المتأخرة من الليل ، وربت على جيب معطفه الطبى ؛ ليتأكد من وجود اختراعه الصغير فيه ، قبل أن يدفع باب حجرة تلك المريضة ، الغارقة فى غيبوبة عميقة ، منذ أكثر من ستة أشهر ، ويدلف إلى المكان فى سرعة ، ثم يغلقه خلفه فى إحكام ، وهو يلقى نظرة متوترة على ساعة يده ، التى أشارت عقاربها إلى الثالثة والنصف صباحًا تقريبًا ...

كان يعلم جيدًا أن موعد مرور طاقم التمريض ؛ لمتابعة المريضة ، سيأتى فى الخامسة صباحًا ، مما يعنى أنه أمامه ساعة ونصف الساعة ؛ ليثبت نجاح اختراعه ...

وفى توتر ، أخرج جهازه الصغير من جيب معطفه ، وحمله فى حرص ، كما لو أنه وليد غير مكتمل النمو ، ووضعه على المنضدة الصغيرة ، إلى جوار المريضة مباشرة ، ثم اعتدل يلهث ، كما لو أنه قد بذل جهدًا خرافيًا ، وغمغم فى عصبية :

— حتى مساء اليوم كنت مريضتى ، أما الآن ، فأنت عمرى كله .

تطلع إلى مريضته بضع لحظات ، وهو يبذل كل جهده للسيطرة على انفعاله ، ثم التقط نفسًا عميقًا ، وقال وكأنه يتحدث إليها :

— الحادث الذى أصابك ، أسقطك فى واحدة من أنواع الغيبوبة غير ذات التفسير الواضح ؛ فكل أجهزتك تعمل على نحو طبيعى وعلى الرغم من هذا ، فأنت غارقة فى غيبوبتك .

كشف ذراع المريضة ، ودفع فى عروقها إبرة رفيعة ، تتصل عبر أنبوب طويل بذلك الجهاز الصغير ، وهو يواصل :

— ولقد بذلنا كل المحاولات الممكنة ، ليس لعلاجك ، ومحاولة إخراجك من غيبوبتك العميقة فحسب ، ولكن لفهم وتفسير سببها أيضًا .

كشف ذراعه ، ودفع فى أوردته إبرة مماثلة ، تتصل عبر أنبوب شبيه ، بذلك الجهاز الصغير ، متابعًا :

— وفى النهاية ، أقر الكل بعجزه ، وبأنه لا سبيل إلى تفسير حالتك ، أو علاجها فى الوقت الحالى ، وكل ما يمكننا هو الإبقاء عليك آمنة ، وفى حالة طبية ممتازة ، حتى نتوصل إلى التفسير أو العلاج .

نقل بصره بينها ، وبين جهازه الصغير ، الذى يحوى مفتاحًا واحدًا ، مع مصباحين صغيرين على جانبيه ، أحدهما له لون أحمر ، والثانى أخضر اللون ، مع مؤشر رقمى مستطيل أعلاهما ...

كان يشعر بتوتر شديد ، قبل أن يختبر جهازه للمرة الأولى ، فقال ، وكأنه يفرغ توتره ، فى حديثه مع امرأة لا تسمعه :

— نظريتى تقول : إن ما تعانين منه أشبه بجهاز حيوى ، نضبت بطاريته الأساسية ، فبدا من الخارج سليمًا كما كان ، ولكنه فى حاجة إلى الطاقة المحركة الرئيسية .

ومال نحوها ، مضيفًا فيما يشبه الهمس :

— الطاقة الحيوية .

قالها ، وتراجع فى توتر ، وعاد ينقل بصره بينها وبين جهازه الصغير ، والتقط نفسًا عميقًا آخر ، فى محاولة للسيطرة على أعصابه الثائرة ، قبل أن يتابع :

ـ ولست أعنى بالطاقة الحيوية هنا ، تلك الطاقة الطبيعية للجسم البشرى ، والتى يمكن قياسها بشتى الوسائل الحديثة ، وإنما أعنى نوعًا آخر من الطاقة ... تلك الطاقة التى تكمن فى الدم ، وتنشأ عن سريانه فى العروق ... الطاقة التى تمنحنا الحياة ، والتى تصنع منا بشرًا ، يفكر ، ويشعر ، ويكره ويحب .

التقط نفسًا عميقًا آخر ، وتمتم :

ـ طاقة الدم الحيوية .

صمت لحظات ، وكأنه ينتظر منها تعليقًا ، ثم هز رأسه مغمغمًا :

ـ المسبار الذى غرسته فى عروقك وعروقى ، لا يشبه إبرة محقن عادى ، فهو ليس مجوفًا مثله ، بل هو مسبار خاص لقياس طاقة الدم الحيوية ، ونقل ذبذباتها المنمنمة ، إلى جهازى الصغير ، الذى يقوم بفحصها ، وتحليلها ، وقياس قوتها ، ثم يقارنها بذبذبات الطاقة الدموية الحيوية ، الصادرة من عروقى ، ويعمل على معادلة الطاقتين ...

هز رأسه ، وكأنما يقنع نفسه بالفكرة ، قبل أن يستطرد :

ـ هذا أشبه بمحاولة إيقاظ بطارية سيارة فارغة ... إننا نوصلها ببطارية سيارة أخرى ، فتدور ، وتعود السيارة ذات البطارية الفارغة للعمل .

ألقى نظرة على ساعة يده ، فوجد أن عقاربها تقترب من الرابعة صباحًا ، وأدهشه أن مر كل هذا الوقت ، دون أن ينتبه ، فغمغم فى توتر :

ـ أظن أنه من الأفضل أن نبدأ التجربة .

تأكد مرة أخرى من كل التوصيلات ، قبل أن تتجه سبابته فى تردد وتوتر ، إلى الزر الوحيد فى الجهاز الصغير ...

وبمنتهى العصبية ، ضغط الزر ...

فى البداية ، أضاء المصباح الأحمر ، وبدأ الجهاز عمله ...

ولكنه لم يشعر بشىء ...

أى شىء ...

لخمس دقائق كاملة ، بدت له أشبه بدهر كامل ، راح يحدق فى الجهاز ، وفى المصباح الأحمر ، والمؤشر الرقمى المستطيل ،

بالقرب من قمة الجهاز ، والذى ظل يشير إلى الصفر ، وكأنما لم يستقبل شيئًا ....

لا نبضات عادية ، أو فوق عادية ...

ولا ذبذبات ولا اى دليل على وجود تلك الطاقة الدموية الحيوية ...

وفى توتر شديد ، عقد الدكتور (وجدى) حاجبيه ، وهو يغمغم :

ـ مستحيل !... كل حساباتى تؤكد أن ...

وقبل أن يتم عبارته ، بدأ كل شىء فجأة ...

بلا مقدمات ، بدأت الأرقام تتحرك فى سرعة ، على تلك الشاشة المستطيلة ...

وشعر الدكتور (وجدى) بصدمة مباغتة ...

لم تكن صدمة نفسية أو عصبية ، وإنما صدمة حقيقية ...

صدمة ، شعر معها وكأن لكمة قوية قد أصابت رأسه ، دون سابق إنذار ...

وأمام عينيه ، اللتين اتسعتا عن آخرهما ، اختفت معالم الحجرة ، وظهرت بدلاً منها معالم منزل قديم ...

كان من الواضح أن ذكريات هذه المريضة ، الغارقة فى غيبوبة عميقة ، قد انتقلت إليه ، بوسيلة ما ...

كان المنزل قديمًا ، يشبه بيوت القرن التاسع عشر ، وهناك موقد كبير على الأرض ، يمتلئ بفحم مشتعل ، وتفوح منه رائحة بخور قوية ...

وكانت هناك أصوات عجيبة تتردد ...

أصوات بلغة ليست عربية حتمًا ...

ولا هى حتى واحدة من اللغات الخمس ، التى يجيدها ...

كانت لغة غريبة ...

عجيبة ...

ومخيفة ...

وكانت هناك يدان ، تتحركان حركات عجيبة ...

وبين الحين والآخر ، تلقيان بعض البخور فى الموقد ...

وعلى الرغم من حالة الجمود ، التى أصابته عقب الصدمة ، استطاع أن يستوعب الأمر فى سرعة ...

إنه الآن داخل عقل المرأة ...

يشعر بما شعرت به ...

ويرى ما رأته ...

ذلك الصوت الذى يسمعه ، بتلك اللغة العجيبة ، هو صوتها ...

واليدان هما يديها ...

إنه ، وعبر وسيلة لم يقرأ حتى عنها من قبل ، يرى عبر عينيها ....

ويحيا ذاكرتها ...

كان يريد أن يقاوم هذا الشعور المخيف ، إلا أنه عجز عن هذا تمامًا ...

حاول حتى أن يمد يده ؛ ليطفئ جهازه الصغير ...

ولكن هيهات ...

لقد تجمد كل جسده ، وصار أشبه بمريض مصاب بشلل كامل ، فيما عدا عقله ، الذى ظل يعمل ...

ويرى ..

ويشعر ...

كانت نيران الموقد تتأجج أكثر وأكثر ، مع ترديد تلك الكلمات العجيبة ...

ثم فجأة ، راحت تلك الصورة تتكون داخلها ...

وعلى الرغم من حالة الجمود ، التى سقط جسده فيها ، شعر الدكتور (وجدى) برجفة عنيفة ، تسرى فى أوصاله ، وهو يرى ما رأته المرأة ، داخل النيران ...

كائن بشع رهيب ، تكون وسط النيران ، وبدا كجزء من الجحيم ، بقرنيه الصغيرين ، وملامحه السوداء البشعة ، وزوج الأعين ، اللتين غابت منهما القزحية تمامًا ، ويدين أشبه بقطعتين من الحجر الملتهب ...

وراح الصوت يعلو ، ويكتسب رنة رعب ، ثم بدأت الكلمات تعود إلى العربية ، مع صرخة المرأة :

ـ انصرف ... انصرف ...

ولكن ذلك الكائن البشع واصل التكون ، حتى صار هو والنار كيانًا واحدًا ...

وفى مشهد رهيب ، خرج من موقد النيران ، واتجه نحوها ...

وصرخت المرأة ...

وصرخت ...

وصرخت ...

وصرخت ...

وسمع الدكتور (وجدى) صدى صراخها فى رأسه ...

وعبر ذاكرة عينيها ، رأى ذلك الكائن يملأ بصرها كله ...

وعبر أذنيها ، سمعه يقول :

ـ أنت أردت هذا .

صرخت المرأة ، بكل رعب الدنيا :

انصرف ... لن أفعل هذا مرة أخرى ... انصرف ... انصرف ...

قال ذلك المخلوق البشع ، وهو يمد نحوها يدين صغيرتين ، فى كل منهما ثلاثة أصابع ، تنتهى بمخالب حادة طويلة :

ـ لست تملكين الطاقة اللازمة لصرفى .

صرخت بكل رعب وفزع الدنيا ، واقترب ذلك الشىء البشع منها اكثر وأكثر ، وبدأ ذيله الشبيه بذيل جدى يتلاعب خلفه ، و...

وفجأة ، توقف ...

وخفق قلب الدكتور (وجدى) ، فى رعب هائل ، عندما ابتسم ذلك البشع ابتسامة شيطانية ، برزت إثرها أنيابه الحادة الرفيعة الطويلة ، وهو يقول :

ـ آه ... هناك آخر .

ثم بدأت الصورة تتسع ، ليملأ وجهــه البشع بصر الدكتور (وجدى) كله ، ويرن صوته المخيف فى أذنيه ، وهو يتابع :

ـ أنت جلبت هذا لنفسك .

وحاول الدكتور (وجدى) أن يصرخ ...

حاول أن يستنجد ...

أن يفعل أى شىء ...

ولكنه لم يستطع ...

أما ذلك الكائن البشع ، فقد غاص فى أعماقه ، وراح يسيطر على كيانه ، و ...

« إنها معجزة » ...

هتفت بها ممرضة الخامسة صباحاً ، وهى تستدعى الطبيب المناوب ، عبر الهاتف الداخلى للمستشفى ، قبل أن تلتفت إلى المريضة ، التى أفاقت من غيبوبتها العميقة ، متابعة فى انفعال :

ـ لقد استعادت مريضة الحجرة (13) وعيها ... لست أدرى كيف ... لقد حضرت فى موعدى ؛ لقياس وظائفها الحيوية ، فوجدتها واعية ، تشعر بالدهشة ، وتتساءل أين هى ... الدكتور (وجدى) ؟!... هذا هو أغرب ما فى الأمر .

وألقت نظرة على الدكتور (وجدى) ، الذى بدا ذاهلاً ، جامدًا ، يحدق أمامه فى لا شىء ، قبل أن تتابع ، فى انفعال بلغ ذروته :

كل وظائفه الحيوية تعمل جيدًا ، ولكنه واقع فى غيبوبة عجيبة ... غيبوبة ليس لها من تفسير .... أى تفسير .

* * *

6 ـ أهـل الهـوى ...

لابد أن أنتهى من كتابة هذه المذكرات بأقصى سرعة ، قبل أن أعجز عن كتابتها تمامًا فيما بعد ...

لابد أن يعرف العالم كله الحقيقة ...

هذا لو صدقنى أحد ...

ولكن كيف يصدقوننى ، وأنا أروى مذكراتى من داخل هذا المكان ...

من المستشفى ...

مستشفى الأمراض النفسية والعصبية ...

أرأيتم ... أنتم أنفسكم دخلتم فى زمرة غير المصدقين ، أو على الأقل المتشككين ، فور معرفتكم بالمكان ..

ولكننى لست مريضًا ...

صدقونى .. لست كذلك أبدًا ...

كل ما فى الأمر هو أن ما أرويه يبدو أشبه بالجنون ، ويدفع البعض إلى الإسراع بافتراض أننى مختل عقليًا ، أو على الأقل نفسيًا ...

ولكن حتى لا نضـيع الوقـت فى تفسيرات لا طائل منها ، دعونى أقص عليكم الأمر منذ البداية ...

منذ التقيت بمريضى (عزيز) ...

آه ... نسيت أن أخبركم أننى طبيب ... وطبيب أمراض نفسية وعصبية بالتحديد ... بل وصاحب نفس المستشفى ، الذى يتم احتجازى فيه كمريض ...

دعونا نبدأ من البداية ، قبل أن يفوت الوقت .

منذ دخل (عزيز) عيادتى فى البداية ، كدت أجزم بأنه مصاب بمرض ذهانى شديد ؛ إذ بدا شديد التوتر ، زائغ البصر ، أشعث الشعر ، ثيابه غير مهندمة ، ولحيته غير حليقة ، حتى أننى لم أصدق ما أخبرتنى به زوجته ، من أنه عالم بكتريولوجى معروف ...

لم يكن عنيفًا على الإطلاق ، بل بدا مستسلمًا ، بائسًا ، عاجزًا ، حتى إننى ، وبخلاف كل القواعد الطبية ، تعاطفت معه فى شدة ، وتعاملت معه برفق شديد ، وأنا أسأله مشفقًا عما يعانيه ، ومازلت أذكر إجابته العجيبة ، حتى يومنا هذا :

ـ ما أعانيه هو صورة مما سنعانيه جميعًا ، فى غضون عام واحد من الآن ...

سألته فى رفق :

ـ وما الذى سنعانيه جميعًا ؟!

تطلع فى وجهى لحظات ، بعينيه الزائغتين ، قبل أن يقول فى يأس ، وهو يشير بيده :

ـ سنعانى منهم ... سيسيطرون على عقولنا جميعًا ... على أدمغتنا ... على إرادتنا ... لن يسلم شخص واحد منهم ، لأنهم مثل البكتريا .

سألته فى حيرة :

ـ مثلها فى ماذا ؟!

زاغت عيناه أكثر ، وهو يلوح بذراعيه فى الهواء ، مجيبًا :

ـ إنهم ينتشرون فى الهواء .. لا تراهم أو تشعر بهم ، ولكنك تستنشقهم وتتنفسهم ، ومن رئتيك يغزون دمك ، ويسيرون عبره إلى مخك ، ويبدءون فى السيطرة عليـــه ... فى البداية

ستسمعهم يتحدثون إليك ، ثم سيلقون عليك أوامرهم ، وفى خلال أسبوع واحد ، ستصير عبدًا لهم ، وستنسى حتى من أنت .

ثم مال نحوى ، حتى شعرت بالخوف ، وهو يضيف :

ــ ولا يوجد سبيل لمقاومتهم ... أى سبيل .

بدت لى كحالة هلوسة مثالية ، ونموذج للفصام شبه الكامل ، فغمغمت :

ــ وهل تطيع أوامرهم ؟!

هز رأسه ، قائلاً فى يأس :

ــ لن تملك سوى هذا .

تصورت أننى أمام حالة تستحق الدراسة بالفعل ، فملت نحوه ، أسأله فى اهتمام :

ــ هل يمكنك أن تروى لى القصة من البداية ؟!

تراجع فى مقعده ، وهو يواصل التحديق فى وجهى ، قبل أن يدفن وجهه بين كفيه ، وهو يغمغم ، وكأنه يحدث شخصًا آخر فى الحجرة :

ــ سأخبره ... من حقه أن يعرف ... بل من حق العالم كله أن يعرف ... نعم سأخبره .

وعندما رفع عينيه إلىّ ، كانتا محمرتين كالدم ، وهو يقول فى توتر :

ــ البداية كانت فى عينة بكتيرية جديدة ، حصل عليها طبيب سموم شاب ، حار فى تحديد فصيلتها ، فأرسلها إلى معملى لدراستها ، وإبلاغه بالنتائج ... ولقد بدأت الإجراءات الطبيعية ، فوضعت جزءًا من العينة فى مزرعة خاصة ؛ لتنمو فيها وتتكاثر ؛ لدراسة سلوكها فى هذا الشأن ، ووضعت قطعة على شريحة مجهرية ؛ لأفحصها عبر المجهر الخاص بالمعمل .

دارت عيناه فى محجريهما ، وهو يشير بيده ، قائلاً بلهجة مضطربة :

ــ وهنا كانت المفاجأة .

شعرت باهتمام شديد ؛ لمعرفة تلك المفاجأة ، فعدت أميل نحوه ، وهو يواصل بلا انفعال :

ــ كانت فصيلة حيوية ، لم أر لها مثيــلاً من قبــل ... شكلها الخارجى يشبه البكتريا بالفعل ... والبكتريا العصوية لو شئت

الدقة ، أما سلوكها ، فلم يكن سلوك بكتيريا على الإطلاق ، بل كان أشبه بسلوك مستعمرات النمل ، أو خلايا النحل ...

بدت علىّ الحيرة ، وأنا أسأله :

ـ وكيف هذا ؟!

بدأت يداه تتحركان فى انفعال زائد ، وهو يجيب :

ـ كلهــا كانت متشابهة فى مظهرهــا الخارجى ، إلا أنها انقسمت إلى مجموعات ، لكل منها وظيفة محدودة ، والمزرعة البسيطة ، التى زرعتها فيها ، بدت بعــد أسبوع واحد أشبه بمستعمرة منظمة ، بها قائد يحتل مركزها ، وجنود يحيطون به ، ومجموعات تنتشر فى الأطراف ... مستعمرة حقيقية .

أثار الأمر اهتمامى بالفعل ، وخاصة مع تلك التفاصيل الفنية ، فسألته فى لهفة :

ـ أمازالت تلك المزرعة ، أو المستعمرة كما وصفتها ، فى معملك ؟!

هز رأسه نفيًا فى أسى ، وهو يجيب :

ـ كلا ... لقد نقلتها إلى وحدة الميكروسكوب الإليكترونى ، فى جامعة (القــاهرة) ، وما إن فحصتها هنــاك ، حتى تملكنى رعب حقيقى .

بدأ عرق عجيب يتصبب على وجهه ، على الرغم من برودة الجو ، وزاغت عيناه فى شدة ، وهو يلوح بيديه فى عصبية ، مكملاً بكل انفعاله :

ـ إنها ليست بكتريا ، كما بدت تحت ميكروسكوب عادى ، بل هى كائنات حية عاقلة ، تختفى تحت زى خداعى ، يشبه تركيب البكتيريا العصوية ، كائنات ما إن أدركت أننى قد كشفت أمرها ، حتى شنت هجومها على الفور .

تراجعت فى مقعدى ، أتطلع إليه لحظات فى حيرة ، محاولاً إعادة تشخيصى الأولى ...

الرجل ، على الرغم من مظهره وعصبيته ، يبدو واعيًا تمامًا لما يقول ...

وفى حياتى كلها ، لم أر مريضًا يمكنه التحدث عن أمور علمية ، بهذا القدر من الدقة والمعرفة ، على الرغم من أن روايته تشبه أفلام الخيال العلمى ، منها إلى الحقيقة !!...

وبكل فضولى ، سألته :

ــ وكيف شنت ذلك الهجوم ؟!

تضاعف انفعاله ، وهو يجيب :

ــ كنت قد اتخذت كل الاحتياطات ، للحفاظ على تلك المزرعة ، وعلى الرغم من هذا ، فقد رأيتها تزحف على المكتب ، أمام عينى ، ثم سقطت أرضًا ، وتحطمت تمامًا ...

مال نحوى بغتة ، وبدا أقرب إلى الانهيار ، وهو يضيف :

ــ ومع تحطمها ، انطلقوا ينفذون خطة الغزو .

غمغمت بكل دهشتى :

ــ غـزو ؟!

لوح بذراعيه مرة أخرى ، صائحًا :

ــ لم أدرك هذا فى البداية ... فقط أسرعت أجمع بقايا ذلك الطبق الزجاجى ، الذى حوى المزرعة ، وعندما فحصتها ، لم أجد بها أى أثر لكائن واحد منها ، وأدهشنى أن تختفى كلها فى لحظة واحدة ... ولم أدرك بالطبع أنهم فى الهواء من حولى ، وأننى أستنشقهم ، وأطلقهم داخل جسدى ، دون أن أدرى .

بدأت أشعر بقلق وخوف حقيقيين ، فى حين نهض هو من مقعده بحركة حادة ، وهو يواصل صياحه وانفعاله :

ــ قبل أسبوع واحد ، بدأت أسمع أصواتهم داخلى ، وأخبرونى كل شىء عنهم ... أخبرونى أنهم جاءوا مع نيزك صغير ، سقط على الأرض ، فى غفلة من الزمن ، وهالتهم فى البداية أحجامنا الهائلة ، ثم سرعان ما أدركوا أن كل ما يحرك تلك الأجساد الضخمة ، بالنسبة لهم ، هو مخ صغير نسبيًا .

سألته ، محاولاً كتمان قشعريرة سرت فى جسدى :

ــ وكيف أدركوا هذا ؟!

أشار إلى رأسه ، قائلاً :

ــ من مخى ... من ذاكرتى ... من جسدى كله .... لقد علمت منهم أننى البداية ، وأنهم سينتشرون فى الهواء ، عبر جهازى التنفسى ؛ ليغوصوا فى كل جسد أرضى ، ويسيطرون علينا تمامًا .

بدأ يصرخ بكلماته ، على نحو مقلق ، فضغطت الزر الموجود على سطح مكتبى ، وسرعان ما ظهر ممرضو المستشفى ، فقلت لهم ، محاولاً السيطرة على انفعالاتى :

ـ الأستاذ (عزيز) يحتاج إلى راحة طويلة ... سنستضيفه لدينا لبضعة أسابيع ، حتى يسترد عافيته .

قاوم (عزيز) طاقم التمريض فى استماتة ، وهو يصرخ :

ـ أنت أيضًا لا تصدقنى .... لا أحد يصدقنى ... هذا هو مكمن قوتهم ... لا أحد يقتنع بوجودهم .... سيسيطرون على الجميع ... أنت التالى أيها الطبيب ... أنت رسولهم التالى ؛ للقضاء على إرادة البشر .

ظل يواصل صرخاته ، وهم يحملونه عنوة إلى قسم الحالات العنيفة ، وبكت زوجته فى مرارة ؛ عندما أخبرتها أنه سيحتاج إلى عـلاج طويل ؛ للخروج مـن حالة الهلوسـة التى يعيش فيها ...

فى البداية ، اضطررنا لحقنه بعقاقير مهدئة قوية ، حتى تمنع إصابته بأى انهيار عصبى عنيف ، وعلى الرغم مما أصابته به من استكانة ، كان يحدث نفسه طوال الوقت ، باعتبار أنه يتحدث مع تلك الكائنات الميكروسكوبية ، التى تعيش داخله .

ثم ، وبعد يومين فحسب ، صار شديد الهدوء ، شارد البصر ، يطيع الأوامر طاعة عمياء ، دون جدل أو مناقشة ...

ولكنه واصل الحديث مع نفسه ...

أو معهم ...

تصورت عندئذ أننا قد نجحنا فى السيطرة على حالته ، وبدأت أدون هذا فى ملفه ، حتى كانت ليلة باردة ، سهرت فيها لإنهاء بعض الملفات فى مكتبى ، عندما بدأ الاتصال ...

فجأة ، سمعت صوتًا من داخلى ، يقول فى آلية :

ـ فهمنا لتكوينكم يزداد يومًا بعد يوم .

شعرت برعب هائل ، وخيل إلىّ أننى سأقضى نحبى رعبًا ؛ فالصوت كان ينبعث من أعماقى بالفعل ... من ثنايا مخى ....

وبكل رعب الدنيا ، صرخت :

ـ ماذا تريدون منى ؟!

أتانى الصوت نفسه يقول :

ـ كل ما أردناه حصلنا عليه بالفعل ... وكل ما عليك الآن ، هو أن تنقلنا إلى كل من تعرف ... عبر الهواء .

رحت أصرخ بكل قوتى :

ـ لا ... هذا ليس حقيقيًا ... إنها هلاوس سمعية ... مجرد هلاوس سمعية .

قال ذلك الصوت بنفس الآلية :

ـ هذا ما سيقوله الآخرون ... وهذا يضمن عدم كشف أمرنا ... لقد أصبحت تحت سيطرتنا تقريبًا ... انقلنا عبر الهواء ... انقلنا إلى كل من تعرفه .

رحت أصرخ ، وأصرخ ، وأصرخ ، حتى امتلأ مكتبى بكل أفراد النوبة الليلية ، من أطباء وطاقم تمريض ..

حاولت أن أشرح لهم الأمر ، إلا أن نظرات الإشفاق فاضت من عيونهم ، وأسرع بعضهم يحضر العقاقير الطبية المهدئة ، و...

وأنا الآن أرقد فى جناح خاص ، مجاور لجناح (عزيز) ، وقد صرت مثله ، زائغ العينين ، أشعث الشعر ، أتلقى علاجى فى انتظام ، وأنا أعلم أنه فى أية لحظة من الآن ، ستكتمل سيطرتهم على عقلى ، ولن أملك إلا طاعة أوامرهم .

ولكن هذه المذكرات ستكشف أمرهم ، إذا ما قرأها شخص لديه بعض الخيال ...

وعندئذ ستبدأ المقاومة ...

مقاومة الغزاة ...

لا ... ليسوا غزاة ... إنهم السادة ... السادة الجدد ...

كما تأمرون أيها السادة ... سأمزق هذه المذكرات فورًا ، وسأنفذ أوامركم ، وأنقلكم عبر الهواء ، لكل من ألتقى به ...

أنا عبدكم المطيع أيها السادة ...

مرونى أنفذ ...

فأنتم السادة الآن ...

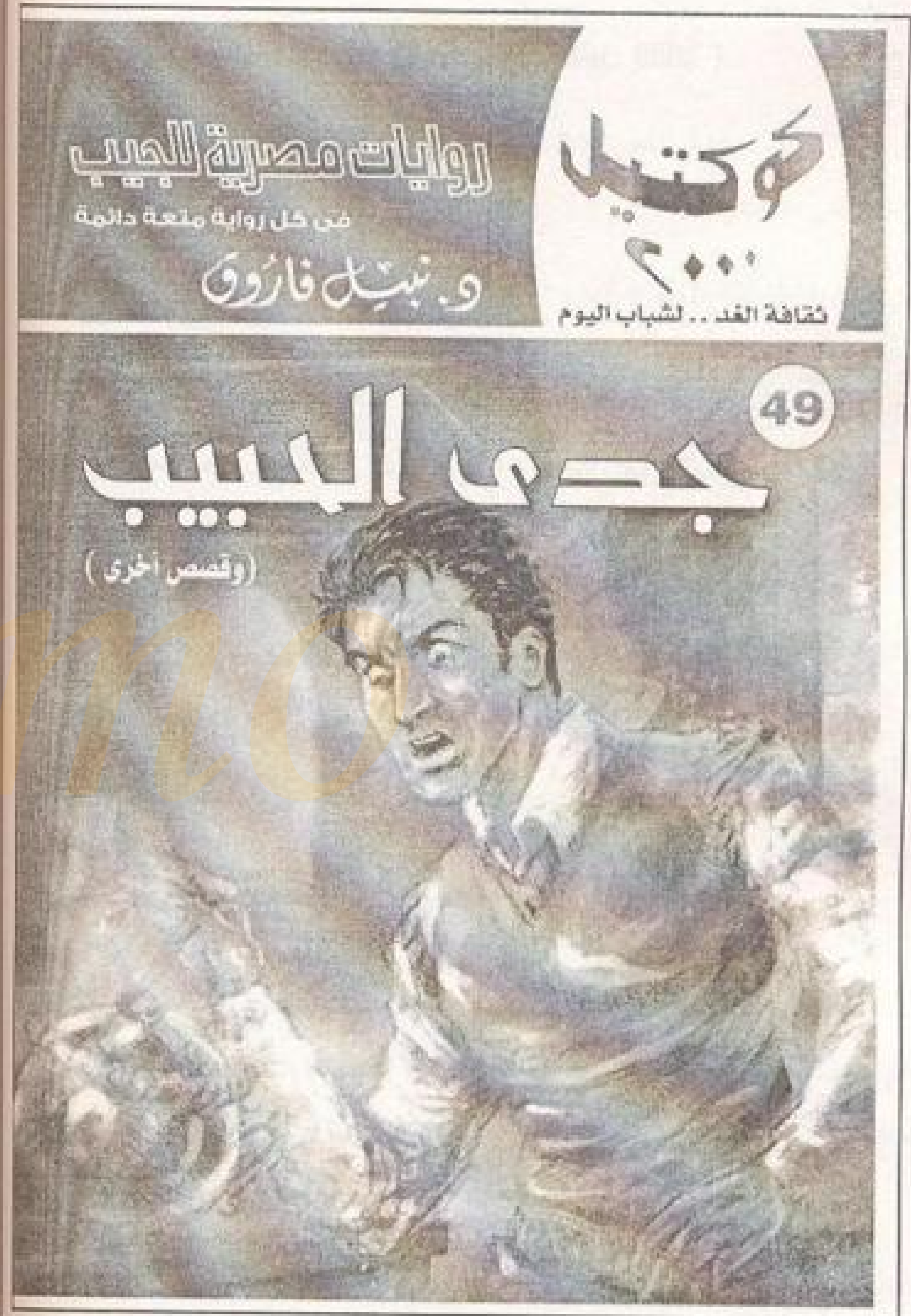
سادتى ...

وسادة الأرض ...

الجدد .

* * *

(تمت بحمد الله)



1 ـ ميراث ..

« جدك توفى أمس ... احضر لتسلم الميراث ... »

برقية قصيرة ، وصلتنى حاملة تلك الكلمات المختصرة ، من بلدة بسيطة ، على الحدود السورية اللبنانية ...

ولقد أدهشتنى تلك البرقية فى الواقع ...

هذا لأننى لم ألتق بجدى لأمى هذا قط ، منذ وعت عيناى الدنيا ...

كل ما عرفته عنه ، هو تلك الصورة الكبيرة ، التى كانت تحتفظ بها أمى له ، والتى كانت تثير خوفى منذ طفولتى ؛ بسبب نظراته القوية القاسية فيها ، وشاربه الضخم ، الذى يحتل نصف وجهه ، ويمنحه مظهرًا يناسب بدايات القرن العشرين ، بأكثر مما يناسب زمننا هذا ، وخاصة مع تلك الحلة الثمينة النمطية ، التى يرتديها فى الصورة ، مستندًا إلى عكاز ضخم ، من الواضح أنه كان يتكئ عليه من باب الوجاهة ، لا من باب العجز ...

وكانت أمى ، اللبنانية المولد والجنسية ، تتحدث عنه دومًا بفخر واعتزاز ، وتحكى الكثير عن قوته وشهامته وبطولاته ، فى مواجهة المحتلين ...

وفى مـــرة أو مرتين فحســـب ، تحدثت عن غضبه منها ، ومقاطعته لها ؛ عندما تزوجت من مصرى ، وأقامت معه فى (مصر) ، حيث ولدت أنا ونشأت ...

ولكن جدى هذا لم يحاول الاتصال بى قط ، على الرغم من أن أمى كانت تؤكد دومًا أننى حفيده الوحيد ؛ نظرًا لأنها ابنته الوحيدة ، وأنا ابنها الوحيد ...

ولم تذكر شيئًا أبدًا عن ثرائه ...

أو حتى عن مهنته ...

ولقد توفيت أمى منذ سنوات قليلة ، وانقطع بوفاتها الحديث عن جدى ، وانقطعت كل صلة سماعية لى به تمامًا ...

ثم فجأة ، تصلنى تلك البرقية !!...

لم أكن قـد زرت (لبنـــان) قـــط ، ولم تكن تلـك الزيارة ضمن مخططاتى القريبـــة ، أو حتى البعيـــدة ، حتى وصلت تلك البرقية ...

كانت تحمل توقيعًا لشخص يدعى (عدنان الموالى) ...

واسم تلك البلدة ، التى أرسلت منها ...

ولكن الحديث عن الميراث ، جعلنى أعد حقيبتى ، وأستقل أول طائرة إلى (بيروت) ، وأنا أحلم بذلك الميراث ، الذى لا أعلم مقداره أو حدوده ، ولكنه أثار فى نفسى خيالات عديدة ، وأمل فى الخلاص من الأزمات المالية ، التى أمر بها ، منذ وفاة والدى ، وضياع ثروته ، مع الأزمة الاقتصادية العالمية ...

وفى مطار (بيروت) وقفت أنتظر وصول (عدنان) هذا ، والذى أبلغته برقيًا بموعد وصولى ...

ولقد وصل بالفعل ، بعد عشر دقائق فحسب ، من خروجى من المطار ...

ولم أشعر بالارتياح قط ، وأنا أصافحه للمرة الأولى ...

لقد جاء فى سيارة قديمة للغاية ، ولكنها نظيفة ومعتنى بها جيدًا ، والعجيب أنها مازالت تعمل بكفاءة ، على الرغم من أن عمرها يتجاوز نصف القرن ...

والرجل نفسه كان يتجاوز هذا العمر أيضًا ...

كان لديه شعر أشـيب كثيف ، وشـــارب يماثل شارب جـدى ضخامة ، ووجه كثيـــر التجاعيد ، وعينان ضيقتان ، تكاد تتبين

لونهما فى صعوبة بالغة ، من شدة ضيقهما ، كما كان صوته خشنًا غليظًا ، إلى حد يدهشك ...

وكان قليل الكلام ، إلى حد مستفز ...

ولقد صافحنى (عدنان) فى برود عجيب ، ثم اصطحبنى إلى سيارته القديمة ، التى قطعنا بها رحلة طويلة مجهدة ، لم أتصور قدرتها على قطعها ، قبل أن نصل إلى تلك البلدة الصغيرة ، التى عاش بها جدى ومات ...

وأول ما لاحظته ، عندما وصلنا إلى تلك البلدة ، هو ذلك النفور العجيب ، الذى يصيب كل من نمر به ، عندما يتبين السيارة ، وهوية قائدها ...

كان نفورًا يمتزج بلمحة من الخوف والتوتر ....

ولكن (عدنان) هذا لم يبال ، وهو يواصل طريقه ، إلى درب ضيق ، يقود إلى أحد الجبال اللبنانية ، التى شاهدتها فى أفلام السينما فحسب ...

وعبر ذلك الدرب الضيق ، تواصلت رحلتنا ، و(عدنان) يجيب تساؤلاتى العديدة بكلمات غاية فى الاقتضاب ، مشيرًا إلى أننى سرعان ما أعرف كل شىء ...

وأخيرًا ، توقفت بنا السيارة ، عند قمة الجبل تقريبًا ، أمام منزل من طابقين ، له طراز قديم ، مشيد وحده ، فى تلك البقعة ، التى تطل على الحدود السورية اللبنانية مباشرة ...

وهنا ، أشار (عدنان) إلى المنزل ، قائلاً بصوته الغليظ الخشن :

ـ هذا هو ميراثك .

أدهشنى أن تنتهى بى الرحلة الشاقة إلى هـذا ، فغمغمت معترضًا :

ـ فقط ؟!

رمقنى (عدنان) بنظرة عجيبة دون تعليق ، ثم حمل حقيبتى الوحيدة ، واتجه بها نحو ذلك المنزل ، فتتبعته دون مناقشة ، ودخلت معه ، ولأول مرة ، المكان الذى عاش به جدى ...

لم يكن المنزل من الداخل يختلف كثيرًا عن طرازه من الخارج ؛ إذ كان كل شىء فيه عتيق ، يعود إلى قرن من الزمان على الأقل ...

الأثاث ، والتحف ، وتلك المدفأة القديمة ...

كل شىء ...

وكان هناك غبار خفيف ، يكسو كل شىء فيه تقريبًا ، حتى لتتصور أن يدًا لم تمتد إليه بالعناية ، منذ زمن ليس بقليل ...

وكانت الإضاءة فيه خافتة ، إلى حد مستفز ، حتى إننى سألت (عدنان) هذا ، فور رؤيتى له :

ـ كم يبلغ ثمن هذا المنزل ؟!

أجابنى فى غلظة :

ـ إنه ليس للبيع .

أجبته فى غلظة مماثلة :

ـ لو أنه ميراثى ، فهذا شأنى أنا .

رمقنى بنظرة لم ترق لى إطلاقًا ، وهو يصعد بحقيبتى إلى الطابق الثانى ، مكررًا :

ـ إنه ليس للبيع .

أغاظنى قوله هذا كثيرًا ، ليس لتدخله فى شئونى فحسب ، ولكن لأننى ، ومنذ النظرة الأولى ، اتخذت قرارًا بعدم الاحتفاظ بهذا المنزل الكئيب ، أيًا كانت الظروف ...

وفى سرعة ، ومن خلال خبرتى فى العمل التجارى ، رحت أقيم تلك التحف الكثيرة ، التى تملأ كل الأركان ، وقدرت أنها وحدها تساوى ثروة ، تكفى لإخراجى من أزمتى المالية تمامًا ...

وبغض النظر عن موقف (عدنان) المتعنت ، اتخذت قرار البيع ، قبل حتى أن أصعد خلفه إلى الطابق الثانى ، الذى يحوى ثلاث حجرات ، وضع (عدنان) حقيبتى فى واحدة منها ، تحوى حجرة نوم عريقة الطراز ، تشبه تلك التى نراها فى الأفلام التاريخية ، بفراشها الضخم ذى الأعمدة ، وقطع الأثاث الكبيرة ، والإضاءة شديدة الخفوت ، والتى قررت استبدالها بإضاءة قوية ، فى الصباح التالى مباشرة ...

ولقد وضع (عدنان) حقيبتى ، ثم استدار لينصرف ، دون كلمة إضافية ، فسألته فى لهجة قاسية بعض الشىء :

ـ وماذا عن الحجرتين الأخريين ؟!

تجاهل سؤالى تمامًا ، وهو يغادر الحجرة ، فعدوت خلفه ، أسأله فى خشونة حادة :

ـ ماذا بهما ؟!

التفت إلىّ فى بطء مستفز ، وهو يجيب :

ــ أشياء خاصة .

قلت فى حدة :

ــ لقد ورثت المنزل بكل ما فيه ... أليس كذلك ؟!

صمت لحظات ، متطلعًا إلىّ بعينيه شديدتى الضيق ، قبل أن يجيب فى بطء :

ــ يفترض هذا .

أغاظتنى إجابته ، فقلت فى شىء من العصبية :

ــ ماذا يعنى هذا ؟!... إما أنه ميراثى أو لا .

واصل صمته لحظات أخرى ، ثم أجاب ، وهو يشيح بوجهه ، مكملاً انصرافه :

ــ إنه كذلك .

وتوقف قليلاً ، قبل أن يلتفت إلىّ نصف التفاتة ، مضيفًا :

ــ لو أنك تستحقه .

بدا لى شديد الوقاحة بقوله هذا ، فأمسكت كتفه فى غضب ، صائحًا فى وجهه :

ــ إنك لم تخبرنى بعد ، ما شأنك بكل هذا .

وعلى الرغم منى ، سرت فى جسدى قشعريرة عجيبة ، عندما أمسكت كتفه ...

لقد كانت كتفه لينة ، على نحو عجيب ...

أو مخيف ، لو شئت الدقة ...

كانت كأنها ، على الرغم من نحوله ، لا تحوى أية عظام ... على الإطلاق ...

كانت رخوة ، حتى لتشعر كأنك قد أمسكت قطعة من المطاط اللدن ، المستخدم لصنع ألعاب الأطفال ...

وبحركة حادة ، أبعدت يدى عنه ، وتراجعت خطوتين إلى خلف ، وأنا أحدق فيه فى مزيج من الدهشة والذعر ...

وبكل توترى هتفت :

ــ من أنت بالضبط ؟!..

وهنا ، لمحت على شفتيه شبح ابتسامة ساخرة ، وهو يجيب فى بطء ، وبنفس اللهجة الغليظة والصوت الخشن :

ـ تستطيع أن تقول : إننى مدير هذا المنزل .

سألته فى عصبية ، وأنا أحاول تجاهل ملمس كتفه :

ـ ومن وضعك فى هذا المكانة ؟!

أجابنى فى حسم :

ـ جدك .

ثم مال نحوى ، على نحو مخيف ، وهو يضيف ، فى شىء من الصرامة :

ـ وهذا أحد شروط الميراث .

كانت أول مرة أشتم فيها رائحة أنفاسه الكريهة ...

وسرت فى جسدى قشعريرة أخرى .

لقد كانت أنفاسه أشبه برائحة قبر ، انفتح بعد طول إغلاق ...

رائحة تحمل هواء الموت الفاسد ، وأنفاس مئات السنين من النسيان ...

وتراجعت فى خوف حقيقى ، وأنا أتساءل : لماذا فعل جدى بى هذا ؟!

لماذا ؟!...

وبكل عصبيتى وانفعالى ، سألته :

ـ وأين وصية جدى ، التى قالت هذا ؟!

أجابنى بغلظته وخشونته فى برود :

ـ سآتيك بها ، فى الصباح الباكر .

وقفت لحظات أتطلع إليه ، وأتبادل معه نظرة عصبية ، قبل أن أشير إلى الحجرتين المغلقتين ، قائلاً بكل ما استطعت استكماله فى نفسى من صرامة :

ـ افتح الحجرتين ... أريد أن أنظر ماذا بهما .

وقف يتطلع إلىّ بعينيه شديدتى الضيق لحظات ، قبل أن يجيب فى بطء :

ـ لست أدرى أين وضع جدك مفتاحيهما .

قلت فى حدة :

ـ أى قول هذا ؟!

أجاب فى برود ، وهو يبتعد عنى :

ـ سأبحث عنهما فى الصباح .

تابعته ببصرى ، وهـو يهبـط إلى الطابق الأرضى ، ويختفى داخل حجرة وحيدة فيه ، ولم أشعر بالارتياح على الإطلاق ، وأنا أتطلع إلى الحجرتين المغلقتين ، وبذلت جهدًا حقيقيًا فى محاولة فتحهما ، إلا أننى لم ألبـث أن شعرت باليأس ، فتركتهما ، واتجهت نحو حجرة النوم الخاصة بى ، و ...

وفجأة ، سمعت ذلك الأنين ...

أنين شخص يتعذب بشدة ...

أو يحتضر ...

وفى هذه المرة ، لم تسر فى جسدى قشعريرة ...

بل انتفض كله ...

وبمنتهى العنف ...

فقد كان ذلك الأنين ينبعث من إحدى الحجرتين المغلقتين ... مباشرة .

* * *

2 ـ عدنـان ..

لم يغمض لى جفن لحظة واحدة ، فى ليلتى الأولى ، فى منزل جدى ...

صحيح أن ذلك الأنين ، الذى انبعث من الحجرتين المغلقتين ، لم يستغرق سوى دقيقة واحدة على الأكثر ، إلا أنه أصابنى بتوتر لا مثيل له ...

ولقد حاولت جاهدًا فتح باب تلك الحجرة ، التى انبعث منها الأنين ...

حاولت ...

وحاولت ...

وحاولت ...

ولكن كل محاولاتى باءت بفشل ذريع ...

كان الباب مصنوع من خشب ثقيل ، جعله أشبه بالفولاذ ، وأكثر صمودًا من باب قلعة منيعة ... ولكن ما أثار توترى أكثر ، هو أننى لم أستطع العثور على (عدنان) هذا أبدًا ...

لقد شاهدته بنفسى يدخل الحجرة ، أسفل سلم الطابق الثانى ، ولم أشاهده يغادرها ، أو يغادر المنزل قط بعدها ، وعلى الرغم من هذا ، فقد اختفى تمامًا ، دون أن يترك خلفه أدنى أثر ...

ولقد هبطت إلى الطابق السفلى ، وناديته أكثر من مرة ، دون ان أحصل على جواب ، لذا فقد اتجهت إلى تلك الحجرة ، التى رأيته يدخلها ، وفتحت بابها ، و ...

وكانت مفاجأة عجيبة ...

الحجرة خالية تمامًا ...

لم تكن خالية من (عدنان) فحسب ، ولكن من كل شىء ...

وأى شىء ....

كانت مجرد حجرة صغيرة ، بلا نوافذ ، وليس لها سوى باب واحد ، وهو ذلك الذى رأيته يعبره ...

وبخلاف هذا ، لم يكن هناك شىء ...

على الإطلاق ...

ولأكثر من ساعة كاملة ، رحت أفحص الحجرة ، وأدق عليه بقبضتى ؛ محاولاً كشف أية فجوات سرية خلفها ...

ولم يكن هناك شىء ...

ولقد ضاعف هذا من توترى ألف مرة ...

بل ربما ألف ألف مرة ...

وعلى ذلك الضوء الخافت المزعج ، رحت أتأمل منزل جدى مرة أخرى ...

ومع تلك العراقة الواضحة ، فى كل ما حولى ، وجدت عقلى يطرح تساؤلاً محيرًا ...

ماذا كان يعمل جدى بالضبط ؟!...

أية مهنة كان يمتهن ؟!...

أمى لم تذكر هذا فى أحاديثها قط ...

كل ما ذكرته هـو بطولاته ، التى أظـن أن معظمها من صنع خيالها ، أو رغبتهـا فى التبـاهى بوالدها ، الذى قاطعها طيلة عمرى ...

ولا شىء عن تاريخه ...

أو مهنته ...

بل لا شيء حتى عن أمها !!...

انتبهت فجأة ، إلى أن أمى لم تحدثنى عن أمها قط ، طوال حياتها ...

فقط عن أبيها ...

فلماذا ؟!...

هل توفيت والدتها ، وهى بعد أصغر من أن تذكرها ؟!...

أم إنها كانت تمتهن مهنة ، تخجل من ذكرها ؟!...

استغرقتنى الأفكار والذكريات ، وأنا أجلس فى صالة منزل جدى الواسعة ، المليئة بالتحف الأثرية ، والتى جعلها الضوء شديد الخفوت ، تبدو فى صورة مخيفة ، إلى الحد الذى قررت معه أن يكون أول ما أفعله فى الصباح ، هو النزول إلى تلك البلدة الصغيرة ، عند سفح الجبل ، وشراء مصابيح قوية ، تحل محل تلك المصابيح القديمة المزعجة ...

وعندما بدأت الشمس رحلة الشروق ، وأرسلت دفعات ضوءها الأولى ، عبر النوافذ الضيقة ، بدأ رأسى يدور نسبيًا ، وشعرت وكأننى نصف نائم ، قبل أن أنتبه فجأة ، إلى صوت حركة ما فى المكان ...

وبحركة حادة متوترة ، اعتدلت وأنا أفتح عينى عن آخرهما ، وشعرت بجسدى ينتفض انتفاضة خفيفة ، عندما وقع بصرى على (عدنان) ، بوجهه شديد التغضن ، وهو يضع أمامى صينية طعام صغيرة ، عليها رغيف صغير من الخبز ، وبيضة مسلوقة ، وطبق يحوى القليل من اللبنة اللبنانية الشهيرة ...

وبكل توترى ، هتفت به :

ـ من أين جئت ؟!

غمغم فى خشونة :

ـ أنا لم أغادر قط .

حدقت فيه فى دهشة مستنكرة ، قبل أن أهتف :

ـ ولكننى بحثت عنك فى كل مكان ، ولم أعثر لك على أدنى أثر .

أجابنى بنفس الخشونة ، وفى اقتضاب مستفز :

ـ أنا هنا طوال الوقت .

حدقت فيه مرة أخرى ، وكأننى أراه للمرة الأولى ، ثم تجاوزت عن سؤاله عن أين أمضى ليلته ، وأنا أسأله فى توتر :

ـ وماذا عن ذلك الأنين ؟!

رفع عينيه الضيقتين إلىّ فى بطء ، وهو يسألنى فى حذر :

ـ أى أنين ؟!

أشرت إلى الطابق الثانى ، وأنا أقول فى شىء من الحدة :

ـ أمس ، وعندما صعدت إلى الطابق الثانى ، كان هناك أنين ينبعث من إحدى الحجرتين المغلقتين هناك .

بدا لى كأنه يتطلع إلىّ فى إمعان ، إذ كان من الصعب الجزم بهذا ، مع ضيق عينيه الشديد ، ولكنه استغرق لحظات ، قبل أن يجيب فى بطء :

ـ مـــن الواضـــح أن رحلتك أرهقتك كثيرًا أمس ، فتصورت أن ...

قاطعته فى حدة :

ـ لم أكن واهمًا ... كان هناك أنين واضح ، ينبعث من إحدى الحجرتين ...

صمت لحظات أخرى ، ثم أجاب بنفس البطء :

ـ ليس أنينًا ... إنه صوت الهواء ، عبر أنابيب التهوية ..

تطلعت إليه فى شك ، جعله يضيف :

ـ جدك كان يسبق زمانه بزمان ، ولقد أضاف إلى تصميمات منزله شبكة من أنابيب التهوية ، تمر بكل الحجرات ... وفى بعض الليـــالى ، يمر الهـــواء عبر تلك الأنابيب ، فيصدر ذلك الصوت الشبيه بالأنين .

واصلت نظرة الشك لحظات ، فأشار بيده إلى الطابق العلوى ، متابعًا :

ـ ستجد واحدة من تلك الفتحات ، بالقرب من أسفل فراشك .

لم يقنعنى قوله أبدًا ، فملت نحوه ، أقول فى صرامة :

ـ أريد فتح الحجرتين ... اليوم .

هز كتفيه ، قائلاً فى خشونة :

ـ أخبرتك أننى سأبحث عن مفتاحيهما ، بين متعلقات جدك .

قلت فى صرامة ، محاولاً تقليد خشونته :

ـ لن أنتظر حتى تفعل .

رفع رأسه بحركة تساؤل ، فأضفت فى صرامة وخشونة أكثر :

ـ سأهبط إلى البلدة ، وأحضر من يفتحهما بالقوة .

مضت لحظات ، وهو يتطلع إلىّ فى صمت ، ثم أشاح بوجهه ، وقال فى لهجة ، اشتممت منها رائحة سخرية :

ـ يمكنك أن تحاول .

كان قد أولانى ظهره تقريبًا ، عندما قلت فى عناد :

ـ سأذهب فورًا .

صمت لحظة أخرى ، قبل أن يلتفت إلىّ فى بطء ، وهو يخرج مفاتيح تلك السيارة القديمة ، ويناولنى إياها ، قائلاً :

ـ افعل ... ولكن تناول طعام إفطارك أولاً .

قلت ، وأنا أنهض فى حدة :

ـ لست أشعر بالجوع .

فوجئت بسحنته تنقلب على نحو مخيف ، وهو يقول ، فى لهجة أقرب إلى الشراسة :

ـ ستتناول طعام إفطارك أولاً ... من الضرورى أن تظل بصحة جيدة .

كان يمكننى القول هنا أننى قد واجهت لهجته ونظراته المخيفة فى شجاعة ، ولكن الواقع أننى لم أفعل ، بل شعرت فى أعماقى بشىء من الخوف ، جعلنى أعاود الجلوس ، وأبدأ فى تناول طعام الإفطار بالفعل ، ثم لم يلبث ذلك العناد أن عاودنى ، فقلت فى شىء من العصبية :

ـ سأستبدل كل هذه المصابيح أولاً ... إننى أبغض هذا الضوء الخافت .

أشاح بوجهه مرة أخرى ، وهو يكرر :

ـ يمكنك أن تحاول .

قالها ، ثم اتجه فى هدوء نحو باب المنزل ، وغادره دون أن يضيف كلمة واحدة ...

كنت قد انتهيت من تناول إفطارى الصغير بالفعل ، عندما اختفى خارج المنزل ، فاختطفت مفاتيح السيارة ، واندفعت خلفه ، وأنا أتساءل :

ـ هل سأذهب وحدى ؟!

أجبته فى حيرة :

ـ نعم .... هناك .

صمت لحظات أخرى ، قبل أن يجيب فى حزم ، غلب عليه توتر شديد :

ـ لو دفعت كل ما تملك ، لن تجد شخصًا واحدًا ، فى البلدة كلها ، يقبل بالصعود إلى هناك .

أدهشتنى إجابته فى شدة ، فسألته فى توتر :

ـ ولماذا ؟!

مال نحوى ، فى توتر يفوق توترى ألف مرة ، وهو يجيب :

ـ لأن من يذهب إلى هناك ، لا يعود ... أبدًا .

وكانت إجابته أشبه بالصدمة ...

صدمة بلا حدود ....

على الإطلاق .

* * *

3 ـ القصــر ..

طوال طريق عودتى إلى منزل جدى ، لم أتوقف لحظة واحدة عن التفكير ، فى موقف أهل تلك البلدة الصغيرة منه ...

وأقصد من منزل جدى ، وليس من جدى نفسه ...

هذا لأنه من العجيب أن أحدًا ، فى البلدة كلها ، لم ير جدى فى حياته قط ...

والأعجب أنه لا هو ، ولا حتى (عدنان) هذا ، قد تعاملا مع أى مكان فى البلدة كلها ، منذ عهد طويل للغاية ...

وحديث ذلك الرجل ، عن أن أحدًا لا يعود من منزل جدى ، كان حديثًا عجيبًا ، مازلت أذكر كل حرف منه ، عندما سألته :

ـ وما الذى يعنيه هذا بالضبط ؟!

أشار بيده ، وهو يجيب فى حذر :

ـ لست أدرى ، جدى أخبرنى هذا ، عندما كنت صغيرًا .

تطلعت إليه فى دهشة كبيرة ، عندما نطق الجزء الأخير من عبارته ...

فوفقًا لملامحه ، كان يبدو فى منتصف الخمسينيات من عمره ، فكيف روى له جده ذلك ، عن منزل جدى ، عندما كان صغيرًا ؟!..

إننا نتحدث عن نصف قرن من الزمان !!...

عن خمسين عامًا دفعة واحدة!! .. .

فكيف ؟! ..

التفسير الوحيد ، الذى جال بذهنى ، هو أن هذا المنزل ليس منزل جدى منذ البداية ، بل هو ميراث عائلى ، يعود إلى عهد بعيد ...

هذا يفسر عراقته الواضحة ...

وذلك الكم الكبير من التحف فيه ...

والإضاءة الخافتة ...

زاد تذكر تلك الإضاءة الخافتة من توترى ، فتحسست الحقيبة الصغيرة ، التى تستقر على المقعد المجاور ، والتى تحوى أقوى مصابيح كهربية وجدتها فى البلدة ؛ حتى أتجاوز تلك الإضاءة المستفزة ...

أما فيما يتعلق بالباقى ، فقد كان (عدنان) على حق ...

لم يرض مخلوق واحد بالصعود معى إلى المنزل ؛ لفتح البابين المغلقين ، على الرغم من المبلغ شديد الإغراء ، الذى عرضته ...

كانوا يخافون الذهاب إلى هناك على نحو عجيب ...

بل يخشون حتى مجرد الحديث عن ذلك المنزل ...

وكلهم ، بلا استثناء ، يجهلون تمامًا أى شىء عن جدى ...

لا أحد رآه ...

أو سمعه ...

أو علم حتى بوجوده ...

الوحيد الذى يعرفونه ، هو (عدنان) ...

وحتى هو ، كانوا يجهلون اسمه تمامًا ...

كل ما يعرفونه عنه ، هو أنه ذلك الشيخ المخيف ، الذى يهبط بسيارته العريقة ، من (منزل الشر) ، وهو الاسم الذى يطلقونه على منزل جدى ، ويعبر بلدتهم فى بطء ، دون أن يلقى

نظرة واحدة على أهل البلدة ، الذين لا يرفعون أبصارهم عنه ، وعن سيارته ، حتى يختفى فى الوادى ...

وطوال دهر كامل ، لم يتوقف فى البلدة مرة واحدة ...

ولا مرة واحدة !!...

توقفت ذكرياتى ، عندما أوقفت السيارة أمام منزل جدى ، وحملت مفاتيحهما ، مع حقيبة المصابيح إلى الداخل ، وأنا أنادى (عدنان) ...

ومن تلك الحجرة الخالية ، فى الطابق السفلى ، رأيته يخرج ، ويغلق الباب خلفه فى إحكام ، فسألته ، دون أن أنجح فى كتمان عصبيتى وتوترى :

ـ ماذا كنت تفعل هناك ؟!

سألنى فى برود :

ـ أين ؟!

كان السؤال مستفزًا ، حتى إنه زاد من عصبيتى ، وأنا أشير إلى الحجرة ، التى خرج منها ، صائحًا فى حدة :

ـ فى تلك الحجرة الخالية .

ارتفع حاجباه الكثان على نحو عجيب ، وهو يقول مستنكرًا :

ـ خالية ؟!

اندفعت نحو الحجرة ، وأنا أواصل بنفس الحدة :

ـ نعم ... خالية ... لقد بحثت عنك فيها أمس ، و ...

فتحت باب الحجرة بحركة عصبية ، وأنا أنطق عبارتى هذه ...

ثم توقفت الكلمات فى حلقى دفعة واحدة ...

واتسعت عيناى عن آخرهما ...

فتلك الحجرة ، التى رأيتها خالية بالأمس ، إلا من أربعة جدران ، صارت فجأة ممتلئة بالأثاث ، الذى ينتشر فى كل ركن منها ...

فراش قديم ...

ومنضدة طعام صغيرة ...

وعدة مقاعد ...

ودولاب شبه متهالك ...

وقطعة أثاث ذات أدراج ...

وسجادة صغيرة ...

هذا بالإضافة لبعض الملابس ، التى ألقيت فى إهمال ، على المقاعد والفراش ...

ورف لكتب قديمة ...

و ...

صرخت بكل دهشتى :

ـ مستحيل !

سألنى (عدنان) فى برود :

ـ ما المستحيل بالضبط ؟!

هتفت ، وأنا أشير إلى تلك الحجرة :

ـ هذه الحجرة كانت خالية تمامًا أمس .

عاد يرفع حاجبيه فى دهشة مستنكرة ، وهو يقول :

ـ خالية ؟!... ألنت واثق من أنه لم يكن حلمًا .

انعقد حاجباى فى غضب ، وأنا أهتف به :

ـ لماذا تفعل هذا بالضبط ؟!

سألنى فى هدوء :

ـ أفعل ماذا بالضبط ؟!

صرخت فيه :

ـ لماذا تحاول إرباكى إلى هذا الحد ؟!

بدا باردًا إلى حد مستفز ، وهو يقول :

ـ ولماذا أحاول هذا ؟!

فجأة ، ومع سؤاله ، قفزت فكرة عجيبة إلى رأسى ...

فكرة لست أدرى لماذا لم تخطر ببالى من قبل !!...

فكرة جعلتنى أصرخ فيه ، بكل ما فى نفسى من انفلات :

ـ للاستيلاء على ميراثى .

بدت عليه دهشة عجيبة ، ممتزجة بلمحة ساخرة ، وهو يقول :

ـ أهذا ما تتصوره؟!

واصلت صراخى ، قائلاً :

ـ نعم ... إنك ، ومنذ قدومى إلى هنا ، تحاول إثارة الخوف فى نفسى من المكان ، وإثارة ارتباكى وحيرتى مما يحدث فيه ؛ فى محاولة لدفعى إلى الفرار منه ، أو التخلى عنه ؛ لكى تفوز أنت به ، وربما بما يحويه .

تصاعدت السخرية ، فى ملامحه وصوته ، وهو يقول :

ـ يا له من خيال جامح !...

صرخت كطفل عنيد :

ـ ليس خيالاً ، بل هو حقيقة ... هل يمكنك أن تفسر لى اختفاءك العجيب أمس ؟!... أو مراوغتك بشأن فتح الحجرتين المغلقتين ؟!... ثم أين وصية جدى ، التى نص فيها على أنك ينبغى أن تدير المنزل من بعده ؟!... أين ؟!...

ظل يرمقنى بنظرة عجيبة ، من خلف عينيه الضيقتين ، قبل أن يتجه نحو الحجرة ، التى أقف ببابها ، وهو يقول فى بطء :

ـ سيدهشك أنه لدىَّ إجابات واضحة لكل هذا .

تجاوزنى إلى داخل الحجرة ، واتجه إلى قطعة الأثاث ذات الأدراج ، وهو يقول :

ـ انظر هنا .

كان يشير إلى قطعة الأثاث ، فترددت قليلاً ، ثم اتجهت إليه ، وألقيت نظرة على سطح قطعة الأثاث فى حذر ...

كانت هناك طبقة رفيعة من الغبار ، تغطى سطحها ، على نحو يوحى بأنها هناك منذ زمن ليس بالقصير ...

وفى توتر ، غمغمت :

ـ من يدرى ؟!... ربما ...

قبل أن أتم عبارتى ، رفع (عدنان) قطعة الأثاث عن الأرض ، وأزاحها قليلاً ، ثم أشار إلى الموضع ، الذى كانت فيه ...

ولم أملك جوابًا فى الواقع ...

فقد كان توزيع الغبار ، الذى ترك أثرًا واضحًا ، خاليًا منه ، فى الموضع الذى كانت تحتله قطعة الأثاث ، قبل أن يزيحها (عدنان) ، دليلاً آخر على أنها كانت هنا منذ زمن ...

وشعرت بذاتى تكاد تنفجر ، من فرط التوتر ...

فما أراه أمامى مستحيل !!...

ألف مرة !!!...

لقد فتحت هذه الحجرة بنفسى أمس ، وكانت خالية تمامًا ....

ولم يكن هذا وهمًا ...

أو حلمًا ....

أو خيالاً ...

ولكن ما أراه أمامى الآن أيضًا ليس وهمًا أو حلمًا أو خيالاً ...

فكيف ؟!...

كيف ؟!...

وقفت أحدق فى موضع الغبار كالأبله ، و(عدنان) يقول فى لهجة واضحة السخرية :

ـ هذا الدليل الأول فحسب .

سألته فى عصبية :

ـ أهناك أدلة أخرى ؟!

أشار بيده ، قائلاً :

ـ بالتأكيد .

وفى هدوء ، أخرج من جيب سترته القديمة مظروفًا ، من ورق سميك ، لست أظنه لا يزال مستخدمًا ، فى زمننا هذا ، وناولنى إياه ، وهو يقول فى هدوء :

ـ وصية جدك .

بدت علىّ دهشة واضحة ، وأنا أمد يدى لألتقط المظروف فى حذر ، وكأننى أخشى أن تلوثه أصابعى ...

وبأصابع مرتجفة ، فضضت المظروف ، لأخرج منه ورقة من ذلك النوع البائد الثقيل نفسه ، بدت كأنها مكتوبة بريشة حبر قديمة ...

ورقة بها كلمات قليلة مختصرة ، تمنحنى ميراث المنزل وكل ما فيه ، مع شرط أن يبقى (عدنان) مديرًا له مدى حياته ...

وفى توتر ، قلت :

ـ ومن أدرانى أنها وصية جدى بالفعل ؟!... لماذا لا تكون أنت كتبتها ؟!... إنها لا تحمل أية أختام ، أو توقيعات رسمية ، ولا يوجد شهود عليها أيضًا .

أجابنى فى هدوء :

ـ إنها نسخة تركها جدك لك ، وهناك أخرى تم توثيقها فى بيت العدل ، ويمكنك الرجوع إليها لو أردت .

طويت الورقة ، وأعدتها إلى المظروف القديم ، ودسستها فى جيبى ، وأنا أقول فى توتر ملحوظ :

ـ هذا لا يعد دليلاً ، بالنسبة لى .

دس يده فى جيبه مرة أخرى ، وأخرجها وهو يقول :

ـ وماذا عن هذين ؟!

فى هذه المرة ، ارتفع حاجباى فى شدة ...

فما أخرجه من جيبه كان حقًا عجيبًا ... للغــاية .

* * *

4 ـ المفاجأة ..

لدقيقة كاملة أو يزيد ، لم أنبس ببنت شفة ، وأنا أقف أمام (عدنان) ، محدقًا فى ذلك الشىء العجيب ، الذى أخرجه من جيبه ...

مفتاحان من الكريستال ، لهما تكوين مفاتيح الأبواب القديمة ... مع فارق مدهش ...

كانا يتألقان ببريق عجيب ، يبدو كأنه ينبعث من داخلهما ...

ولقد انعقد لسانى لمرآهما طويلاً ، قبل أن أتساءل :

ـ ما هذا بالضبط ؟!

أجابنى (عدنان) فى هدوء :

ـ مفتاحا الحجرتين المغلقتين .

إجابته جعلتنى أعاود التحديق فى المفتاحين لحظات ، قبل أن أقول بكل الدهشة :

ـ مستحيل !!

سألنى ، ولهجته تحمل رنة ، بدت لى ساخرة :

ــ ولماذا ؟!..

أجبته فى توتر :

ــ البابان ثقيلان للغاية ، والمفتاحان من الكريستال ، و ...

قاطعنى ، مغادرًا الحجرة :

ــ ولم لا تختبرهما بنفسك ؟!

لحقت به على السلم ، وأنا أقول ، فى توتر أكثر :

ــ سينكسران ، فور إدارتهما فى الرتاج .

قال ، وهو يواصل صعوده ، دون أن يلتفت إلىّ :

ــ لن يفعلا .

بلغنا معًا الطابق الثانى ، وتوقفنا أمام البابين المغلقين ، فناولنى أحد المفتاحين ، وهو يشير إلى أحد البابين ، قائلاً :

ــ هيا .

التقطت المفتاح فى حذر ، وترددت لحظة ، قبل أن أدسه فى الثقب الخاص به فى الباب ، ثم توقفت لأنظر إلى (عدنان) مرة أخرى ، فقال فى حزم :

ــ أدره .

ترددت لحظة أخرى ، ثم حسمت أمرى ...

وأدرت المفتاح ...

ولدهشتى الكبرى ، دار المفتاح فى سهولة ، وسمعت صوت الرتاج ينفتح ، قبل أن يتحرك الباب فى هدوء ، دون حتى أن أفتحه ...

وتراجعت كالمصعوق ...

كانت الحجرة التى بدت أمامى مخيفة ...

مخيفة بكل ما تحمله من معان ...

لم يكن بها حقًا ما يخيف ...

بل لم يكن بها أى شىء ...

على الإطلاق ...

وعلى الرغم من هذا ، فقد كانت مخيفة ...

مخيفة ...

مخيفة ...

هذا لأنها كانت حجرة سوداء ...

حجرة خالية ...

بلا أثاث ...

أو نوافذ ...

وكل شىء فيها أسود ...

الجدران ....

والسقف ...

وحتى الأرضية ...

كانت أشبه بكتلة مخيفة من السواد ...

وبكل توتر الدنيا ، هتفت :

ـ ما هذا بالضبط ؟!

أجابنى بكل هدوء :

ـ جدك له مزاج خاص .... خاص جدًا .

هتفت منزعجًا :

ـ أى مزاج هذا ؟!

أجاب بنفس الهدوء ، وإن امتزج هذه المرة بلمحته الساخرة المستفزة :

ـ مزاج جدك .

تطلعت إليه لحظات فى غضب ، ثم تراجعت ، وأنا أغلق باب الحجرة السوداء ، ثم اتجهت إلى الباب الآخر ، وأنا أقول فى عصبية :

ـ وماذا عن الحجرة الأخرى ؟!

لم يجب سؤالى ، وإنما ناولنى المفتاح الثانى ، فترددت كثيرًا ، وأنا أتطلع إليه فى راحته ، فقال فى برود ، وبلهجة لمحت فيها نبرة آمرة :

ـ خـــذه .

التقطت المفتاح من يده ، فى حركة عصبية ، واستدرت أدسه فى ثقب الباب فى حزم ، ولكننى ترددت مرة أخرى ، وأنا أتساءل عما يمكن أن أجده فيها ، حتى سمعته يقول من خلفى :

ـ هل تخشى أن تفتحه ؟!

أغضبتنى عبارته ، فأدرت المفتاح فى الباب ، وشعرت بالباب ينفتح ، دون حتى أن ألمسه ...

وعلى الرغم من أننى كنت أتوقع أمرًا عجيبًا ، إلا أننى ، وعلى الرغم منى ، تراجعت فى حركة حادة عنيفة ، وأنا أطلق شهقة مكتومة ...

الحجرة كانت أيضًا خالية تمامًا ...

ولكنها لم تكن سوداء ...

كانت قرمزية داكنة ...

بلون الدم ...

تمامًا كما لو أنها قد طليت بالدم ...

دم البشر ...

وعلى الرغم منى ، هتفت :

ـ يا للبشاعة !

رأيت (عدنان) يبتسم ابتسامته المستفزة ، وهو يقول بهدوئه الأكثر استفزازًا :

ـ مزاج جدك .

استدرت إليه بحركة حادة ، وأمسكت معصمه فى قوة مفاجئة ، وأنا أقول فى صرامة شديدة العصبية :

ـ مهلاً .

وفى هذه المرة أيضًا ، انتفض جسدى فى عنف مع ملمسه ...

لقد أمسكت معصمه فى قوة ...

وتلامست أصابعى ...

لم يكن معصمه شديد النحول فحسب ...

بل كان مثل كتفه تمامًا ...

بلا عظـــام ...

وفى ذعر ، تراجعت ، وارتطمت على الرغم منى بباب حجرة الدم ، فاندفعت مبتعدًا فى اشمئزاز ، وأنا أصرخ فيه :

ـ ما أنت بالضبط ؟!

رأيت شبح تلك الابتسامة المستفزة على شفتيه ، وهو يسحب معصمه ، قائلاً بنفس الهدوء :

ـ بشرى مثلك ، ولكننى مصاب بمرض وراثى نادر ، يجعل عظامى لينة للغاية .

حدقت فيه لحظات غير مصدق ، قبل أن أهتف :

ـ مستحيل !... لو أن عظامك بهذه الليونة ، لما أمكن لساقك أن تحملانك !

صمت لحظات ، قبل أن يقول :

ـ هذا صحيح .

ثم رفع سرواله عن أحد ساقيه ، وهو يضيف :

ـ لذا فأنا أرتدى هذا دومًا .

حدقت فى الجهاز الذى يحيط بساقه ، والذى يشبه تلك الأجهزة الطبية ، التى يستخدمها ذوى الإعاقة ، وغمغمت فى توتر :

ـ هذا تفسير منطقى .

أعاد إنزال سرواله ، وهو يقول :

ـ والآن ، ماذا أردت أن تقول .

تذكرت ما أردت قوله ، عندما أمسكت يده ، فاستعدت صرامتى ، وأنا أقول :

ـ لماذا تتحدث عن جدى بصيغة الحاضر ، وليس بصيغة الغائب .

أجابنى فى سرعة :

ـ لأنه حاضر .

تراجعت فى دهشة ، فاستدرك ، وهو يشير إلى رأسه :

ـ فى رأسى على الأقل .

حدقت فيه لحظات فى شك ، ثم لم ألبث أن قررت طرح هذا الأمر عن ذهنى مؤقتًا ، وأنا أغلق الباب الثانى ، قائلاً :

ـ يبدو أنه هناك الكثير ، مما أود معرفته عن جدى .

ثم انعقد حاجباى ، وأنا أضيف فى صرامة :

ــ وعن هذا المنزل .

اعتدل ، وهو يقول فى برود :

ــ سل ما بدا لك .

تذكرت حقيبة المصابيح ، وأنا أشير إلى السقف ، قائلاً :

ــ لماذا هذه الإضاءة شديدة الخفوت ؟!

كرر تلك العبارة المستفزة :

ــ مزاج جدك .

قلت فى حدة :

ــ وهل كان مزاجه سوداويًا إلى هذا الحد ؟!

هز كتفيه اللينين ، وقال :

ــ من وجهة نظرك ؟!

قلت فى حدة أكثر :

ــ يبدو أنك تشاركه مزاجه هذا !

أجاب فى حزم :

ــ بالتأكيد .

استعدت صرامتى ، وأنا أقول :

ــ ولكن مزاجى يختلف .

غمغم :

ــ هذا واضح .

قلت بنفس الصرامة :

ــ ولأن مزاجى مختلف ... ولأننى المالك الحالى لهذا المنزل ، فكل شىء فيه سيتغير ؛ ليناسب مزاجى أنا .

وقف يتطلع إلىّ لحظات فى صمت بارد ، قبل أن يقول :

ــ يمكنك أن تحاول .

صرخت فيه :

ــ لا تكرر هذه العبارة مرة أخرى .

ابتسم تلك الابتسامة الشبحية الساخرة ، وهو يكرر فى عناد :

ــ يمكنك أن تحاول .

قالها ، واستدار منصرفًا ، على نحو استفز كل مشاعرى ، فصرخت فيه ، وهو يهبط فى درجات السلم :

ــ وسأبدأ باستبدال تلك المصابيح الضعيفة ... وفورًا .

لم يجب صراخى هذه المرة ، وهو يصل إلى الطابق الأرضى ، ويختفى فى حجرته ، فاندفعت إلى حيث حقيبة المصابيح ، والتقطت منه مصباحًا بقوة مائتى وات ، وجذبت مقعدًا كبيرًا ، أسفل أحد مصابيح الصالة ، واستخدمت منديلى لأحل المصباح القديم من مكانه ، ثم وضعت المصباح القوى بدلاً منه ...

وأضأت المصباح ...

وفى هذه المرة ، قفزت دهشتى إلى الذروة ...

ودفعة واحدة .

* * *

5 ـ صـدمـة ..

هذا المنزل يكاد يصيبنى بجنون مطبق ...

لقد اختبرت تلك المصابيح بنفسى مرتين ، فى المتجر الذى ابتعتها منه ، وكانت فى كل مرة قوية ، نبهرة ...

حتى فى وضح النهار ...

أما هنا ، فهى ليست كذلك ...

على الإطلاق ...

فى كل مكان ، استبدل فيه المصابيح ، يفاجئنى نفس الضوء شديد الخفوت !!...

حاولت ...

وحاولت ...

وحاولت ...

وفى كل مرة ، وكل مكان ، احصل على النتيجة نفسها ...

ضوء مستفز ، شديد الخفوت ، أصابنى بحالة عصبية ، جعلتنى أصرخ فى (عدنان) :

ــ ماذا أصاب مصابيح هذا المنزل المجنون ؟! .

أجابنى فى برود ، وكأنه يتعمد أن يستفزنى :

ــ هكذا إرادة جدك .

التفت إليه بنظرة نارية ، فأشاح بوجهه ، ربما ليخفى ابتسامة مقيتة ، وهو يضيف :

ــ وهكذا سيبقى .

صحت به فى تحد :

ــ المنزل سيكون كما أريده أنا ، حتى لو اضطررت إلى إحضار فنى خاص من (سوريا) ؛ لاستبدال شبكة الكهرباء كلها .

كرر تلك العبارة ، التى استفزتنى دومًا :

ــ يمكنك أن تحاول .

ودون أن أدرى ، وجدت نفسى أقفز من مكانى ، وقد أفقدنى الغضب صوابى ، مع أعصابى الثائرة ، وانقض عليه فى عنف ، أدهشنى أنا شخصيًا ...

ولكن الذى أدهشنى أكثر ، هو ما حدث بعدها ...

فالمفترض أن (عدنان) هذا يعانى من مرونة عظام شديدة ، وعلى الرغم من هذا ، فعندما ارتطمت به ، شعرت كأننى أرتطم بجدار من صخر ...

وكانت الصدمة قوية ، أشعرتنى بآلام فى كل عظمة فى جسدى ، وجعلتنى أرتد عنه ، وأسقط على مسافة مترين منه ...

أما هو ، فلم يهتز بمقدار أنملة ...

فقط أدار عينيه إلىّ ، وقال فى لهجة عجيبة ، تجمع بين الصرامة والسخرية والشماتة :

ــ لم يكن هذا تصرفًا متحضرًا .

تراجعت زاحفًا ، وأنا أحدق فيه فى رعب ، تملكنى لأول مرة ...

ما هذا الرجل بالضبط ؟!...

بل ما هذا الشىء ؟!...

أيعانى من مرونة عظام ، أم صلابة جسد ؟!...

أهو بشر مثلنا ، أم ... ؟!

قبل حتى أن يكتمل الجواب فى ذهنى ، وجدت نفسى أهتف بلا وعى :

ــ اخرج .

استدار بجسده كله نحوى ، وتطلع إلىّ فى تحد ، فصرخت بكل انفعالى :

ــ اخرج ... لا أريدك فى هذا المنزل لحظة واحدة .

ظل واقفًا مكانه ، يرمقنى بنظرة مخيفة ، قبل أن يقول فى بطء وصرامة :

ــ وصية جدك تمنعك من إخراجى .

صرخت بقوة أكبر :

ــ غادر المنزل أو أقتلك .

تألقت تلك الضحكة الساخرة فى عينيه ، وإن لم تنتقل لمحة منها إلى ملامحه ، وهو يقول بكل غلظة :

ــ يمكنك أن تحاول .

نطقها ، ثم استدار ، واتجه نحو حجرته الصغيرة فى هدوء ، وانا أصرخ من خلفه ، بكل عصبيتى :

ــ أقسم أن أقتلك إن لم تفعل .... أقسم .

شاهدته يفتح باب حجرته الصغيرة ، ويدخل الحجرة ، التى بدا أثاثها القديم واضحًا ، أشبه بصورة كئيبة موروثة ، ثم أغلق الباب خلفه ، وسمعت صوت رتاجه ينزلق ، فقفزت من مكانى ، وأنا أواصل صراخى :

ــ لا يمكنك أن تتحدانى ... أنا مالك المنزل الحالى ، ومن حقى أن ....

كنت أندفع نحو حجرته الصغيرة وأنا أصرخ ، وفتحت بابها بحركة حادة ، مع الجزء الأول من آخر العبارة السابقة ، و ...

وانتفض جسدى كله فى عنف ...

وفى كيانى ، وليس فى جسدى وحده ، سرت قشعريرة باردة كالثلج ...

أو أشد برودة منه ...

ولست أدرى كم اتسعت عيناى ، ولكننى أتصورهما قد التهما وجهى كله ، من شدة اتساعهما ، وأنا أحدق فيما أمامى ...

ولست أدرى حتى ، هل تكفى كلمة الذهول ، أم أنها غير كافية لوصف ما أصابنى ...

فقد كانت الحجرة التى أمامى ، والتى شاهدت أثاثها القديم بنفسى ، عبر بابها المفتوح ، منذ ثوان قليلة ، تمامًا كما رأيتها فى المرة الأولى ...

خالية ...

تمامًا ...

فقط جدران وسقف وأرضية ..

بلا نوافذ ...

أو أثاث ...

أو حتى (عدنان) ..

وبلا وعى أيضًا ، وجدت نفسى أصرخ :

ــ مستحيل !.... مستحيل !...

وتراجعت فى رعب بلا حدود ...

وشعرت أننى قد ارتطمت بشىء ما ...

واختل توازنى ...

وسقطت ...

لم يبد لى أننى أسقط أرضًا ، بل فى بئر عميقة ....

عميقة ...

عميقة ...

وبلا قرار ...

ومن بعيد ، سمعت صوت جدى ينادينى باسمى ...

وكان الصوت يأتى من أعماق البئر ...

و ...

فجأة ، استيقظت ...

« هل غفوت قليلاً ؟!... »

ألقى علىّ (عدنان) السؤال ، وهو منحن فوقى ، فانتفض جسدى فى عنف ، وصرخت :

ــ أنت ؟!

تراجع فى شىء من الدهشة ، وهو يقول :

ــ نعم ... هو أنا !..

حدقت فى وجهه ، بنظـرة تجمع بين الدهشـة والخوف والاستنكار ، استقبلها هو فى هدوء مستفز ، وهو يشير إلى شىء ما أمامى ، متسائلاً :

ـ هل أنهيت فطورك ؟!

حدقت فيه مرة أخرى ، مستنكرًا عبارته ، ثم انتبهت فجأة إلى أننى أجلس فى الطابق السفلى من المنزل ، وأمامى صينية طعام صغيرة ، عليها بقايا رغيف من الخُبز ، وقشر بيضة مسلوقة ، وبقايا لبنة فى طبق صغير ...

وفى هدوء مستفز ، رفع هو صينية الطعام ، وهو يقول :

ـ جدك كان يرى دومًا ، أن الإفطار هو أهم وجبات اليوم .

هتفت به :

ـ من أين جئت ؟!

أجاب ، دون أن يلتفت إلىّ :

ـ أنا هنا طوال الوقت .

شعرت بقوة أننى قد مررت بهذا الموقف من قبل ...

نفس الكلمات !..

نفس السؤال !!...

ونفس الجواب !!!..

شعرت بحيرة شديدة ، وأنا أنتزع نفسى عنوة ، من المقعد الذى أجلس عليه ، وقلت فى عصبية :

ـ سأستبدل كل هذه المصابيح ... إننى أبغض هذا الضوء الخافت .

لم أكد أنطقها ، حتى أيقنت من أنى أكرر شيئًا فعلته من قبل ، وخاصة عندما أشاح هو بوجهه ، وكرر عبارته الاستفزازية :

ـ يمكنك أن تحاول .

ضاعف هذا من عصبيتى وتوترى ، فقلت وأنا أتلفت حولى :

ـ أين حقيبة المصابيح ؟!

توقف ليلتفت إلىّ ، متسائلاً :

ـ أية مصابيح ؟!

قلت فى حـــدة :

ــ تلك التى ابتعتها مــن البلــدة ؛ لاستبدال هذه المصابيح القديمة .

بدت دهشة حقيقية على وجهه ، وهو يحدق فى وجهى ، قائلاً :

ــ من البلدة ؟!

نطقها فى استنكار شديد ، قبل أن يضيف فى حذر وتفكير :

ــ ولكننى لست أذكر أننا قد توقفنا لشراء شىء ، عندما مررنا بها !..

قلت فى حدة أكثر :

ــ أنت تعلم أننى قد ذهبت وحدى بالسيارة ، و ...

قاطعنى فى دهشة أكبر ، بدت لى طبيعية وحقيقية للغاية :

ــ وحدك ؟!... كيف ؟!...

سرى الغضب والانفعال فى كيانى ، وأنا أجيب :

ــ أنت تعلم كيف .... لقد أعطيتنى مفتاح السيارة ، و ...

قاطعنى مرة أخرى :

ــ مهلاً ... أنا لم أعطك مفاتيح السيارة ، ولا يمكننى أن أفعل ، فأنا وحدى أعرف أسلوب قيادتها .

صحت فيه :

ــ ولكننى قدتها بالفعــل إلى البلدة ، وسكانها شــهود على هذا ... لقد ابتعت المصابيح من متجر صغير ، يمكننى أن أصف لك عنوانه بمنتهى الدقة .

أشار بيده ، قائلاً فى قلق :

ــ أكان حلمك واضحًا إلى هذا الحد ؟!

صرخت ، وقد استنفدت الأحداث أعصابى :

ــ لم يكن حلمًا ... لماذا تفعل هذا بى ؟!

هز كتفيه العجوزين ، وهو يقول :

ــ لست أحاول أن أفعل شيئًا ، وها هى مفاتيح السيارة ... أرنى كيف ستقودها .

اختطفت المفاتيح من يده اختطافًا ، واندفعت خارج المنزل ، إلى حيث تقف السيارة ، ودفعت جسدى داخلها ، و ...

وتوقفت ...

ليست هذه هى السيارة نفسها ، التى قدتها إلى البلدة أمس ...

إنها تبدو كنسخة طبق الأصل منها ...

ولكنها ليست هى حتمًا ...

التابلوه يختلف تمامًا ...

بل كل شىء فى آليات القيادة يختلف ..

عصا السرعة متصلة بعجلة القيادة ، وليست مزروعة بين المقعدين الأماميين ...

والمفتاح فى المنتصف ، وليس إلى اليمين ...

حتى المذياع ، يبدو أكبر حجمًا ...

« أين السيارة ، التى أحضرتنى بها من المطار ؟!... »

هتفت بالسؤال فى عصبية ، فأجابنى (عدنان) فى بطء ، وكأنه يحاول تهدئة طفل صغير :

ـ أنت تجلس داخلها .

قلت فى ذروة العصبية :

ـ كلا ... ليست هذه هى السيارة ، التى ذهبت بها إلى البلدة صباح أمس .

مال نحوى ، وهو يقول فى بطء :

ـ من المستحيل أن تكون قد ذهبت إلى البلدة صباح أمس ، لا فى تلك السيارة ، ولا فى غيرها .

صحت به :

ـ ولماذا مستحيل ؟!..

مال علىّ أكثر ، بأنفاسه الكريهة ، وهو يجيب :

ـ لأن طائرتك القادمة من (القاهرة) ، هبطت فى مطار (بيروت) ظهر الأمس فحسب .

وكان جوابه صدمة قوية ، جعلت رأسى يدور مرة أخرى ... وبمنتهى العنف .

* * *

6 ـ كـابـوس ..

« عن أية مصابيح تتحدث يا أستاذ ؟!.. »

حدق صاحب متجر الأدوات الكهربائية ، فى تلك البلدة الصغيرة ، فى وجهى بدهشة حقيقية ، عندما سألته عن المصابيح ، التى ابتعتها منه بالأمس ، وهز رأسه فى حيرة واضحة ، وهو يردف :

ــ إنها أول مرة أراك هنا .

زادت عبارته من عصبيتى ، وأنا أقول :

ــ ألا تذكرنى يا رجل ... لقـد ابتعت منك تلك المصابيح أمس ، و ...

قاطعنى فى ضيق :

ــ البلدة صغيرة يا أستاذ ، ومبيعاتنا ليست كبيرة ، حتى أنسى غريبًا ابتاع ذلك القدر الذى تذكره من المصابيح .

ومال نحوى بشاربه الكبير ، متسائلاً :

ــ ثم أين تلك المصابيح ؟!

وهنا جاء دورى لأحدق فى وجهه فى صمت ...

فأنا لم أعثر على تلك المصابيح قط ، منذ استيقظت فى منزل جدى ...

حتى ذلك المصباح ، الذى غيرته بنفسى ، لم يكن له وجود ...

ومن المستحيل أن يكون كل ما مررت به حلمًا !!...

مستحيل !!...

وألف مستحيل !!...

الأحلام لا تكون أبدًا بهذا الوضوح ...

ولا بكل تلك التفاصيل ...

أبـدًا ...

« ما تاريخ اليوم يا هذا ؟!... »

ألقيت السؤال فجأة على صاحب المتجر ، فالتفت يشير إلى نتيجة حائط ، ذات أرقام كبيرة ، معلقة على جدار متجره ...

وخفق قلبى فى عنف ...

هذا أيضًا مستحيل !...

التاريخ يقول : إن طائرتى قد وصلت إلى (بيروت) أمس فقط !!...

وهذا يعنى أن كل ما مررت به لم يكن حقيقة ...

كل ما رأيته ...

وسمعته ...

وخبرته ...

وشعرت به ...

كل هذا لم يكن حقيقة ...

مستحيل !...

شعرت برأسى يدور بعنف حقيقى ، حتى إننى كدت أسقط أرضًا ، فأسرع صاحب المتجر يمسك يدى ، وهو يقول :

ــ هل أحضر لك مقعدًا يا أستاذ ؟!

لوحت بيدى ، قائلاً :

ــ كلا ... إنه مجرد دوار بسيط .

سألنى فى اهتمام :

ــ هل تناولت طعام إفطارك ؟

أومأت برأسى إيجابًا ، وتحاملت على نفسى ، حتى عدت إلى السيارة القديمة ، التى يتعامل معها الكل فى البلدة ، وكأنها كائن من عالم آخر ، وقررت العودة إلى المنزل ...

لم أستطع قط فهم ما يحدث ..

الرجل الآخر ، الذى روى لى كل شىء ، فى المقهى الصغير ، أذكر ملامحه جيدًا ، وأسلوبه فى الحديث ، وحتى اسمه ، وعلى الرغم من هذا فهو لا يذكر أنه قد التقى بى ، أو تحدث معى! !!...

ومن المستحيل أن يكون كل هذا حلمًا! ...

لن أذكر ملامح وصوت ومكان الرجل بهذه الدقة ، فى حلم عادى !...

هناك شىء ما ...

شىء لا أفهمه ...

ولا أستطيع فهمه ...

حيرتى جعلتنى أقود تلك السيارة القديمة فى بطء ، متأملاً ذلك المشـــهد ، للمنطقـــة الفاصلة بين الحـــدود السورية اللبنانية ، وتساءلت : لماذا اختار جدى هذه البقعة بالتحديد ؛ ليشيد فيها منزله هذا ؟!...

أم إنه ورثه عن أجداده ، كما قالت الروايات ؟!..

هذا لو أنها قيلت بالفعل ...

ولم تكن حلمًا ...

أو وهمًا ...

أخرجت هاتفى المحمول من جيبى ، محاولاً معرفة التاريخ الحقيقى عليه ...

لم يكن يلتقط أية إشارات ، لأية شبكة ، منذ قدومى إلى هذه البلدة ، ولكن برامجه كانت تواصل عملها ، وتشير فى وضوح إلى أن الجميع على حق ...

لقد وصلت بالأمس فقط !! ..

فكيف يحمل رأسى كل هذه الذكريات ؟!...

وماذا عن كل ما رأيته ؟!...

ماذا عـــن الحجرتين المغلقتين ، والمفتاحين المصنوعين من الكريستال العجيب ؟!...

أهما حقيقة ؟!...

أم جزء من الحلم ؟!...

أو من الكابوس ؟!...

واصلت القيادة فى بطء ، حتى وصلت إلى منزل جدى ، على قمة الجبل ، ومن هناك بدت لى الصورة عجيبة ...

كان المنزل يطل على مساحة هائلة من الدولتين ...

(سوريا) و(لبنان) ...

تمامًا كما لو كان مركز مراقبة مثالى ...

وعندما وصلت ، كانت الشمس قـــد بلغت المغيب ، وكان المفترض أن يبدو لى مشهدها ، وهى تلقى أشعتها الأخيرة على الربوع الخضراء ، مشهدًا رومانسيًا جميلاً ، يستحق تسجيله فى لوحة فنية ، أو صورة ضوئية ...

ولكننى ، وفى تلك اللحظة بالذات ، رأيته أشبه بمشهد مخيف ...

فمع زاوية غروب الشمس ، ألقى منزل جدى ظلالاً طويلة فى المكان ...

وكانت ظلالاً مفزعة ...

وإلى أقصى حد ...

فمن موضعى ، كان المنزل ، ببرجيه الصغيرين على جانبيه ، يلقى ظلاً أشبه برأس شيطان ، كما رآه خيال الأدباء عبر العصور ...

وجه طويل ، وقرنان قصيران على جانبيه ...

« هل عدت ؟!.. »

اخترق صوت (عدنان) أفكارى ، فوجدت نفسى أرتجف ، على الرغم منى ، وأستدير إليه فى حركة حادة ...

كان يقف فى ظل المنزل ، والشمس تغرب من خلاله ، مما جعله يبدو أشبه بشبح أسود نحيل مخيف ...

وفى توتر عصبى ، قلت :

ــ نعم ... عدت ... ولكننى لا أفهم .

تقدم نحوى ، وهو يسألنى فى هدوء :

ــ لا تفهم ماذا ؟!...

قلت فى عصبية :

ــ كل ما يحدث ... عقلى يحمل ذكريات يوم ضائع ... وهى ذكريات واضحة ، ودقيقة ، بها كل التفاصيل ، التى لا تجعل منها حلمًا أو وهمًا .

قال فى اهتمام حقيقى :

ــ ربما هى رؤية إذن .

رؤيا ؟!...

لم يخطر هذا الاحتمال فى ذهنى قط ...

ولم يكن من الممكن أن يخطر ...

ربما لأنه ليس هناك من سبب ؛ لتصور هذا ...

أو لأنه لم يحدث معى من قبل قط ....

ولقد أردت أن أقول هذا ، أو أن أستنكر ما قاله (عدنان) ، إلا أننى وجدت نفسى أتطلع إليه فى صمت فحسب ، دون أن أنطق حرفًا واحدًا ، فواصل هو تقدمه نحوى ، وهو يقول :

ـ جدك كانت تراوده رؤى عظيمة .

ثم مال نحوى ، حتى شممت رائحته الكريهة ، وهو يكمل فى حماس :

ـ وكانت كلها تتحقق .

أشحت بوجهى عن أنفاسه ، وأنا أسأله فى عصبية :

ـ هل عثرت على مفتاحى الحجرتين المغلقتين ؟!

اعتدل ، وهو يقول فى هدوء :

ـ لا توجد هنا حجرات مغلقة .

صحت فيه ، وقد انفلتت انفعالاتى :

ـ أنت تعلم أنه هناك حجرتين مغلقتين ، إلى جوار حجرة نومى تمامًا .

وقف يتطلع إلىّ لحظات فى صمت ، ولسان حاله يقـول : « يا للمسكين » ، قبل أن يشير إلىّ ، قائلاً :

ـ أرنى أياهما إذن .

اندفعت إلى داخل المنزل ، وصعدت فى درجات السلم عدوًا ، من فرط الانفعال ، ثم عدوت نحو حجرة نومى ، فى الطابق الثانى ، و ...

وفجأة ، توقفت بحركة حادة ، حتى إننى قد فقدت توازنى ، وسقطت أرضًا ، أمام باب الحجرة ، المجاورة لحجرتى ...

وكان هذ سبب سقوطى بالفعل ...

فإلى جوار حجرة نومى ، لم تكن هناك حجرتان مغلقتان ...

بل حجرة واحدة فحسب ...

ولم يكن هناك أى أثر لحجرة أخرى ...

على الإطلاق ...

حدقت فى الجدار ذاهلاً ، باحثًا عن أى أثر لتلك الحجرة الثانية ، حتى وجدت (عدنان) يمد يده إلىّ ؛ ليعاوننى على النهوض ، وهو يغمغم فى قلق :

ـ ماذا أصابك ؟!

تجاهلت يده الممدودة ، وأنا أتذكر طـراوة جسده ، المثيرة للتوتر ، وعاونت نفسى على النهوض ، وأنا أغمغم فى عصبية :

– أين الحجرة الثانية :

حمل صوته دهشته ، وهو يقول :

– لم تكن هناك أبدًا حجرة ثانية ... هذا جناح جدك الخاص ، به حجرة نومه ، وحجرة مخطوطاته .

نهضت واقفًا ، وحدقت فى الحجرة لحظات ، ثم مددت يدى أدفع بابها فى حذر ، و ...

وبكل هدوء وسلاسة ، انفتح باب الحجرة ...

وبلغت دهشتى ذروتها ...

لقد كانت حجرة واسعة ، بها مكتبة تحتل كل جدرانها ، من الأرض إلى السقف ، وتشبه تمامًا تلك المكتبات ، التى كنت أراها فى أفلام السينما القديمة ، والتى بها سلم خشبى ، يدور حولها ؛ للوصول إلى الكتب فى الأرفف العالية ...

وكلها كانت تكتظ بالكتب والمخطوطات ...

كم هائل من الكتب والمخطوطات ، يستحيل نقلها إلى المكان ، خلال الفترة التى غبتها فى البلدة ...

ولم يحتمل رأسى كل هذه الصدمات ...

وبينما أشعر بدوار شديد ، غمغمت :

– ما يحدث هنا ليس طبيعيًّا ... ليس طبيعيًّا على الإطلاق .

سمعت صوت (عدنان) ، وكأنه يأتى من بئر سحيقة ، قائلاً فى قلق شديد :

– ماذا بك ؟!... هل ....

وبعدها لم أسمع شيئًا ...

ولم أشعر بأى شىء ...

أظننى قد فقدت الوعى على الأرجح ...

أو أنه قد أصابتنى حمى ما ...

فلقد شعرت وكأننى أطير على وسادة هوائية دافئة ، إلى داخل أسطوانة كبيرة مظلمة ، أضيئت بضوء أزرق باهت ، فور استقرارى داخلها ، ثم تحول ذلك الضوء إلى الأحمر الدموى ، و....

وفجأة ، استعدت وعيى ...

كنت أرقد على فراشى ، فى حجرة نوم جدى القديمة ، وكان الجو فى الخارج عاصفًا ، ببرق ورعد ومطر ...

ثم ، ومع سطوع البرق ، رأيت ذلك الشخص ، الذى يقف عند طرف فراشى ، متطلعًا إلىّ بنظرة صارمة ، أحفظها جيدًا منذ طفولتى ...

وانتفض جسدى ، كما لم ينتفض من قبل ...

فذلك الواقف ، عند طرف فراشى ، كان جدى ...

جدى الحبيب ...

الراحــل .

7 ـ سـجين ...

إرهاق شديد ، ذلــك الــذى شعرت به ، منذ استيقظت هذا الصباح ...

إرهاق ، ربما لم أشعر بمثله ، فى حياتى كلها ...

فذلك الكابوس ، الذى هاجمنى أمس ، زلزل كيانى كله ...

كابوس رؤية جدى الراحل ، واقفًا إلى جوار فراشى ...

أو فراشه ، لو صح القول ...

والعجيب أننى ، فى كابوسى ، شاهدته فى وضوح ...

تمامًا مثلما كنت أشاهده طيلة حياتى ...

نفس الشارب الضخم ...

والملامح الصارمة القاسية ....

وتلك النظرة ...

نظرة قاسية مخيفــة ، كانت دومًا تثيــر رعبى ، منذ وعت عيناى الدنيا ...

وفى الكابوس ، كان يرتدى نفس تلك الحلة النمطية القديمة ، التى كان يرتديها فى صورته ، التى أحفظها عن ظهر قلب ...

ولكن أعجب ما فى هذا الكابوس ، هو أننى لم أستيقظ بعده ، كما يحدث مع كل الكوابيس ...

رأيته فيه واقفًا ، يتطلع إلىّ فى صمت ، وضوء البرق ينعكس على وجهه المخيف ...

وانتفض جسدى كله ...

ثم غرقت فى نوم عميق ...

أعمق نوم حظيت به ، فى حياتى كلها ...

ومع أول ضوء من أضواء النهار ، استيقظت فجأة ...

كان الجو صحوًا ، بخلاف ما كان عليه فى الليلة الماضية ، والشمس مشرقة ، فى سماء خالية من السحب ...

وعلى ضوء الشمس ، الذى ملأ الحجرة ، بدت لى الأمور مختلفة تمامًا ، حتى إننى جلست على طرف فراشى ، اتطلع إلى الحجــرة فى حيــرة ، وكأننى أراها لأول مرة ، وأنا أشعر بهذا

الإرهاق ، الذى جعلنى أحتاج إلى ربع ساعة كاملة ، قبل أن أستطيع النهوض ، وارتداء ثيابى ...

وكالمعتاد ، كان (عدنان) قد أعد لى طعام الإفطار ...

بيضــة مسلوقة ، وقليــل مــن اللبنــة ، ورغيف صغير من الخبز ....

والعجيب أن رؤيته لم تستفزنى ، كما كان يحدث سابقًا ، كما لو أننى قد اعتدت وجوده ، وأسلوبه المستفز ...

وبينما أتناول إفطارى ، سألته :

– متى تحسن الطقس ؟!

نظر إلىّ فى دهشة ، وهو يقول :

– أنه على الحال نفسه منذ أمس .

أشرت بيدى ، قائلاً :

– وماذا عن الرعد والبرق والمطر أمس ؟!

توقف (عدنان) بغتة ، وتطلع إلىّ فى حيرة ، وهو يقول :

– أى رعد وبرق ومطر ؟!

شعرت بالتوتر ، وأنا أقول :

ـ ألم تشعر بكل هذا أمس ؟!

وعلى الرغم من عينيه شديدتى الضيق ، شعرت كأنه يتطلع إلىَّ بنظرة حائرة مشفقة ، قبل أن يقول :

ـ هل راودك حلم آخر أمس ؟!

انعقد حاجباى فى شدة ، دون أن أجيب ...

ما الذى يعنيه بسؤاله هذا ؟!...

هل كان ذلك الطقس الرهيب جزءًا من كابوسى ؟!...

ولكن كيف ؟!...

إننى لم أشاهد ، فى حياتى كلها ، كابوسًا بهذه الدقة !!...

تطلعت إلى (عدنان) فى صمت ، دون أن أجيب سؤاله ...

ماذا يحدث فى منزل جدى ؟!...

« أريد أن أزور قبر جدى .. »

لست أدرى حتى لماذا نطقت تلك العبارة فجأة ، ولكن تلك الدهشة العجيبة ، التى ارتسمت على وجه (عدنان) ، جعلتنى أضيف فى إصرار :

ـ واليوم بالتحديد .

تأملنى (عدنان) لحظات ، ثم قال :

ـ لماذا ؟!...

قلت فى حدة :

ـ ولماذا لا ؟!...

هز كتفيه ، مجيبًا :

ـ ربما لأننا هنا لم نعتد هذا .

سألته فى تحد :

ـ ألا يزور اللبنانيون قبور موتاهم ؟!

قال فى بطء :

ـ ربما يفعلون ، ولكننا لا نفعل .

سألته فى دهشة :

ـ أليس من المفترض أنكم منهم ؟!

هز رأسه فى بطء ، دون أن يرفع عينيه عن وجهى ، وهو يقول :

ـ إنهم لا يعتبرونا كذلك .

تصاعدت دهشتى ، وأنا أقول :

ـ ولماذا ؟!...

هز كتفيه اللينين ، وهو يجيب :

ـ يمكنك أن تسألهم .

قلت فى عناد :

ـ سأفعل .

خيل إلىّ أننى ألمح شبح ابتسامة على شفتيه ، فكررت فى حـدة :

ـ أريد أن أزور قبر جدى .

صمت لحظات ، ثم قال فى هدوء :

ـ إنك تجلس فوقه .

عبارته جعلتنى أثب من مقعدى ، فى حركة غريزية ، وأحدق فى الأرضية ، قائلاً فى انزعاج حقيقى :

ـ فوقه ؟!

حملت شفتاه ابتسامة ساخرة واضحة هذه المرة ، وهو يقول :

ـ ليس بالمعنى اللفظى .

حدقت فيه متسائلاً ، فأضاف :

ـ جدك لم يدفن ... لقد أوصى بحرق جثمانه ، ووضع رماده فى قبو المنزل .

ازداد تحديقى فى وجهه ، فأشار بيده إلى الأرضية ، قائلاً :

ـ هل ترغب فى رؤية رماده ؟!

قلت فى توتر :

ـ بالتأكيد .

صمت لحظات ، وكأنما يحسم أمرًا ما فى ذهنه ، ثم أشار إلىّ ، قائلاً :

ـ اتبعنى .

فوجئت به يتجه إلى حجرة المكتب الصغيرة ، فى الطابق الأرضى ، فلحقت به وكلى فضول يلتهم كيانى ، وعندما دخلنا حجرة المكتب ، لم أجد سوى المكتب القديم ، ومكتبة صغيرة خلفه ، ومقعدين أثريين أمام المكتب ....

وعندما رآنى أتلفت حولى ، قال فى لهجة شبه ساخرة :

ـ لا تتعجل .

اتجه مباشرة نحو المكتبة الصغيرة ، وجذب كتابًا قديمًا فيها ، و ...

وقفزت دهشتى مرة أخرى ...

فمع جذب الكتاب ، دارت المكتبة حول محورها فى بطء ، كاشفة مدخل سريًا خلفها ، ذكرنى بالأفلام الأسطورية القديمة ، فغمغمت فى توتر :

ـ أية أسرار أخرى ، يخفيها هذا المنزل ؟!

أجابنى فى هدوء مستفز كعادته ، وهو يعبر ذلك المدخل السرى :

ـ الكثير ...

لحقت به ، ووجدت أمامى درجات سلم دائرية ، تهبط إلى أسفل ، حيث ينبعث ضوء خافت ، وقال (عدنان) ، وهو يهبط فى درجات السلم القديمة :

ـ كن على حذر .

هبطت خلفه فى درجات السلم ، حتى بلغنا بابًا آخر ، يعلوه مصباح خافت ، هو مصدر الضوء الذى شاهدته ، وأمسك هو مقبض الباب ، ثم التفت إلىّ ، وهو يقول :

ـ استعد .

لم أدر ما الذى ينبغى أن أستعد له ، ولا كيف أفعل ، حتى أدار هو المقبض ، وفتح الباب ...

وانطلقت من حلقى شهقة كبيرة .....

فبعبور هذا الباب الأخير ، كنت كمن قفز فجأة ، من عالم إلى آخر ...

أو من زمن إلى آخر ...

لقد عبرته ، وكأننى أعبر آلة زمن ، من القرن الثامن عشر ، إلى القرن الثانى والعشرين دفعة واحدة ...

فعلى عكس المنزل كله ، كانت أمامى قاعة مضاءة بضوء ساطع قوى ، لم أتبين مصدره بالضبط ...

قاعة حديثة ، أو أنها حتى تسبق الزمن الذى أعيش فيه ...

كانت قاعة واسعة ، بمساحة المنزل كله تقريبًا ، جدرانها من مادة تشبه البلاستيك ، ذات لون أبيض ناصع ، يزيد من سطوع الضوء فى المكان ، وقـد تراصت فيها أجهزة حديثة ، ذات شاشات رقمية كبيرة ، تتصل كلها بمجموعة من أحدث أجهزة الكمبيوتر ، التى لم أر مثيلاً لها من قبل ...

وفى منتصف القاعة ، كانت هناك مائدة كبيرة ، أشبه بالموائد الجراحية ، يعلوها جسم مستدير ضخم ، تراصت فيه مجموعة من المصابيح الكبيرة ، وإلى جوار المائدة ، كانت هناك أخرى صغيرة ، استقر فوقها جهاز عجيب ، لم أفهم طبيعته بالضبط ...

وهنـــاك ، فى نهاية القـــاعة ، كان هنـــاك صندوق من زجاج سميك ، فى منتصفه وعـــاء زجاجى أنيـــق ، يحـــوى كمية من الرماد ...

رماد جدى على الأرجح ...

وقفت ذاهلاً مشدوهًا ، أديــر عينىّ فى القـــاعة ، وسمعت (عدنان) يقول ، بذلك الهدوء ، الذى كاد يفقدنى أعصابى :

ـ جدك أوصى بعـدم إطلاعك على قـــاعة أبحاثه الخاصة ، إلا عندما تطلب بنفسك زيارة قبره .

غمغمت بكل انفعالى :

ـ هل كان جدى جراحًا ؟!

أجابنى فى احترام واضح :

ـ جدك رجل عظيم .

التفت إليه ، أكرر فى عصبية :

ـ أكان جراحًا ؟!

قال فى فخر :

ـ جدك عالم وباحث ، يسبق زمانه بقرن من العلم على الأقل .

سألته ، وأنا أدير عينىّ مرة أخرى فى القاعة :

ـ وفيم كان يبحث بالضبط ؟!

أجاب بغموضه المعتاد :

ـ يبحث فى أمور شتى .

ثم اتجه إلى دولاب من زجاج ، حوى عددًا من الملفات وأسطوانات الكمبيوتر ، وهو يكمل :

ـ وستجد هنا كل التفاصيل .

حدقت فى ذلك الدولاب الزجاجى ، وقد انعقد لسانى ، من فرط الدهشة والمفاجأة والانفعال ، فى حين أضاف هو فى حزم :

ـ لكى تكمل أبحاثه .

انتفض جسدى ، وأنا أهتف فى دهشة مستنكرة :

ـ أنا ؟!

بدت لهجة شديدة الصرامة ، وهو يقول :

ـ هكذا أوصى جدك .

قلت فى حدة :

ـ فليوص كما يشاء ، ولكننى لست أدرى شيئًا عن مثل هذه الأمور !

أشار إلى الدولاب الزجاجى ، قائلاً بنفس الصرامة :

ـ هنا ستجد كل ما تريد .

حدقت فى الدولاب الزجاجى ، وأنا أقول :

ـ مستحيل !... هذا أمر يحتاج إلى دراسة طويلة ، وعلم كبير ، و ....

بترت عبارتى فجأة ، عندما سمعت صوت الباب من خلفى يغلق ، فالتفت إليه فى ذعر ، تضاعف عندما وجدت أن (عدنان) قد أغلق الباب بعد انصرافه ، فاندفعت نحو الباب ، وأنا أهتف :

ـ ماذا تفعل ؟!

ثم اتسعت عيناى فى ذعر أكثر ...

فباب المعمل ، المغلق فى إحكام ، لم تكن به وسيلة لفتحه من الداخل ...

وهذا يعنى أننى قد أصبحت سجينًا ...

سجين فى معمل منزل جدى ....

الحبيب .

* * *

8 ـ الرمـــــاد ...

بعــد خمس ساعات ، من الحبس الانفرادى الإجبارى ، فى معمل جدى ، صرت أجزم بأنه كان عبقرية ، سبقت زمانه بقرن على الأقل ....

ولكن قراءة أبحاثه أرعبتنى بعض الشىء ....

هذا لأن جدى كان يبحث فى ذلك الحلم ، الذى رواد مئات العلماء والكيميائيين ، عبر قرون وقرون ...

حلم إكسير الشباب ...

ذلك العقــار الأسطورى ، الذى يتناوله المرء ، فيبقى شابًا لقرون وقــرون ، دون أن تبلى خلاياه ، أو يصيبها التلف ، وتواجه أعراض الشيخوخة ...

ولست أدرى لماذا ذكرتنى أبحاثه برواية (مارى شيلى) الشهيرة (فرانكنشتاين) ، والتى لم أتقبلها كفكرة علمية أبدًا فى حداثتى وشبابى ؛ إذ إنها تتحدث عن إحياء جثث الموتى ، باستخدام الكهرباء ، التى كانت طاقة رهيبة إبان كشفها ، حتى إنها أثارت خيال العديدين ، فلم يتصوروا حدودًا لها ...

تمامًا كما فعلت الطاقة النووية بخيالنا بعدها ...

وكما ستفعل أية طاقة جديدة فيما بعد ...

ثم إن رواية (مارى شيلى) كانت تحمل من الفلسفة ، أكثر مما تحمل من الخيال ؛ إذ تتحدث ، من خلال إطار خيالى ، عن مسئولية الخالق عن المخلوق ، أو المبدع عن إبداعه ، أو حتى الأب عن أبنائه ...

أما أمامى ، عبر الملفات والوثائق ، التى تركها جدى ، فهوــ نظريًا ــ واقع جديد ، يثير ألف خيال وخيال ...

لقد تعامل مع الأمر ، على نحو علمى تمامًا ...

درس لسنوات طويلة تلك التغيرات ، التى تصيب الخلية البشرية ، مع تقدم الإنسان فى العمر ، وتوصل ، منذ ما يقرب من نصــف القــرن ، إلى أن سر الشيخوخة ، هو تراكم سموم مؤكسدة ، على الغلاف الخارجى للخلية ، تمنعها من الاستفادة بالأكسجين ، الذى يضخه الدم ، فتهلك ، وتتداعى ، ويصعب تجديدها بالمقدار نفسه ...

ولقد سبق العلم الحديث بنصف قرن ، فى هذا المضمار ، إذ لم يتم كشف علاقة الأكسدة بضعف الخلية ، وظهور عوامل الشيخوخة على البشر وباقى الكائنات ، إلا فى السنوات الأخيرة فحسب(*) ...

وطــوال نصف القــرن التالى ، أجرى جدى الراحل آلاف التجارب ، التى تستهدف منع أكسدة الخلية ، أو إزالة الأكسدة عنها ...

كان يتعامل مع الأمر ، كما لو أنه صدأ ، تكون عبر السنين ، ووسائل تجاوز تأثيره ، تعتمد على منع تكونه ، أو إزالته بمزيل للصدأ ...

والعقار ، الذى ظل يعمل عليه طويلاً ، يمكن تشبيهه بمزيل الصدأ هذا ...

وثائقه وأوراقه حوت الكثير من المعلومات ، عن العقار الذى حاول ابتكاره ...

والقليل جدًا عن عينات البحث ، التى استخدمها ...

(*) حقيقـــة .

ففى كل أوراقه ووثائقه ، وحتى أسطواناته الرقمية ، لا توجد إشارة واحدة ، إلى من أجرى عليهم تجاربه ...

أو ما أجرى عليه تجاربه ...

أكانت حيوانات تجارب معملية معتادة ...

أم ...

توقف ذهنى فى خــوف حقيقى ، عنــدما بلغت كلمــة (أم) هذه ....

فماذا لو أنه كان يجرى تجاربه على البشر ؟!...

أمن الممكن أن تتجاوز معه الأمور ، إلى هذا الحد ؟!...

هل يمكن أن يكون هذا تفسير العبارة ، التى قالت : إن من يحضر إلى هذا المنزل ، لا يعود قط ؟!...

هذا لو أنها قيلت بحق !!...

عادت الأمور ترتبك فى ذهنى مرة أخرى ، وعاد ذلك الصداع العجيب يهاجم رأسى ، ويجعلنى راغبًا بشدة فى النوم ، فأرحت رأسى على سطح ذلك المكتب الصغير ، فى ركن المعمل ،

وتطلعت لحظات إلى الوعاء الأثرى الأنيق ، داخل ذلك الصندوق الزجاجى ، والذى يحوى رماد جدى الحبيب ، وغمغمت ، وأنا أسبل جفنى ، فى إرهاق عجيب :

ــ ماذا تريد منى يا جدى ؟!... بل ماذا تتوقع منى ؟!...

سمعت صوت رتاج باب المعمل يتحرك ، وصوت الباب يفتح ، إلا أننى لم أستطع حتى الالتفات إليه ...

وعلى الرغم من أن عقلى كان قد فقد معظم إدراكه فعليًا ، إلا أننى أكاد أقسم ، أننى قد سمعت شخصين يتحدثان ، قبل أن أسقط فى ظلام عميق ...

عميق ...

إلى أقصى حد ...

وفى هذا الظلام ، عاودنى كابوس مشابه للأول ...

كابوس رأيت فيــه جــدى ، يرتدى معطف معمله الأبيض ، ويحملنى مع (عدنان) إلى تلك المنضدة الجراحية ، فى منتصف معمله ...

وكان هناك دخان كثيف ، يخرج من ذلك الوعاء ، الذى يحوى رماده ...

دخان كثيف للغاية ...

وكان لذلك الدخان لون الدم ...

وفى كابوسى ، بدا جــدى أكثر قسوة ، مما يبدو عليه فى صورته ...

وعندما قيدنى ، بمعاونة (عدنان) ، على منضدة الجراحة ، صرخت :

ــ لا يا جدى ... لا تفعل بى هذا ...

وبكل قسوته ، أجاب :

ــ هذا لصالحك .

قالها فى كابوسى ، دون أى شعور أو انفعال ، حتى لقــد بدا كأنه شخص بلا حيــاة ... أو أننى رأيتــه فى كابوسى هكذا ؛ لأننى أعلم أنه فعليًا بلا حياة ...

وعلى الرغم من عبارته ، فقد واصلت صراخى ، وأخذت أصرخ ...

وأصرخ ...

وأصرخ ...

« استيقظ .... إنه كابوس ... »

كان صــوت (عدنان) ، هــو الــذى أخرجنى من كابوسى ، أو انتزعنى منه انتزاعًا ، وهو يهزنى فى قوة ، هاتفًا بعبارته السابقة ، ففتحت عينىّ دفعة واحدة ، وحدقت فيه برعب حقيقى ، جعله يتراجع مغمغمًا :

ــ لم أقصد أن أفزعك ، ولكنك كنت تصرخ ، و ...

لم يحاول إتمام عبارته ، باعتبار أن نصفها الثانى واضحًا ، ولكننى انتبهت إلى أننى لســت داخــل معمل جــدى ، وإنما فى حجرة نومه ، فهتفت فى عصبية :

ــ لماذا نقلتنى إلى هنا ؟!

تراجع فى دهشة ، مغمغمًا فى استنكار :

ــ نقلتك ؟!

لم أعد أحتمل هذا الأسلوب ، لذا فقد صحت به فى حدة :

ــ اسمع يا (عدنان) ... لقد سئمت هذه الألاعيب ... لقد غلبنى النوم ، من شدة الإرهاق ، فى معمل جدى ، و ...

قاطعنى بهتاف ، يحمل كل الدهشة والاستنكار :

ــ معمل جدك ؟!... أى معمل ؟!

كان هذا كفيلاً بأن تتفجر كل انفعالاتى ، لأصرخ فى ثورة :

ــ كفى ... هذا لم يعد يحتمل ... لقد قضيت خمس ساعات كاملة ، أقرأ وثائق جدى ، وأطالع أسطواناته الرقمية ، ومازلت أذكر كل ما جاء بها ، من أبحاث ونتائج ، حول إكسير الشباب ، وأذكر ، وبمنتهى الدقة ، تفاصيل كل ركن فى معمل جدى ، من أجهزة الكمبيوتر ، وحتى ذلك الوعاء ، الذى يحوى رماده ، مرورًا بالمنضدة الجراحية ، و ...

تلك النظرة الذاهلة ، التى حدق بها (عدنان) فى وجهى ، جعلتنى أبتر عبارتى دفعة واحدة ، وجعلت صوتى ينخفض فى يأس ، وأنا أقول فى عصبية :

ــ لا تقل لى : إن كل هذا لم يحدث .

ظل صامتًا ، يتطلع إلىّ لحظات ، قبل أن يهز رأسه ، مغمغمًا :

ــ لن أقول شيئًا .

نطقها فى إشفاق ، جعل قلبى يرتجف بين ضلوعى ، فى انتظار الخطوة التالية ، فقلب هو كفيه ، مستطردًا :

ــ ولكننى سأتبعك ، إلى حيث تشاء .

قلت فى عصبية :

ــ ما الذى يعنيه هذا؟! ..

قلب كفيه مرة أخرى ، وزفر فى أسى ، مجيبًا :

ــ صحيح أن جدك رجل عظيم ، ولكنه لا يتعامل بتلك الأجهزة الحديثة ، التى تتحدث عنها ...

اندفعت أصيح فيه :

ــ لا تحاول أن ...

قاطعنى ، محاولاً تهدئتى :

ــ قلت : إننى سأتبعك إلى حيث تشاء ، بغض النظر عن أى شىء .

هتفت فى حدة :

ــ وأنا سألتك عما يعنيه هذا .

هز رأسه فى أسى ، قائلاً :

ــ لست أدرى ماذا أصابك ، منذ وصلت إلى هنا ، ولكنك تتحدث عن معمل وأجهزة حديثه ... قدنى إليها إذن .

استرجع عقلى فى لحظـــة ، كل الخطــوات التى قام بها ، فاندفعت أغادر الحجرة ، وأنا أهتف فى تحد :

ــ نعم ... سأقودك إليها .

سمعت وقع قدميه ، وهو يسرع للحاق بى ، فتابعت ، وأنا أسبقه ، فى الهبوط فى درجات السلم :

ــ كل هذا هناك ، خلف تلك المكتبة الصغيرة ، فى الطابق الأرضى ، حيث المدخل السرى ، إلى معمل جدى .

سمعته من خلفى ، يقول مشفقًا :

ــ معمل حديث ، ومدخل سرى ؟!!... هل تكثر من قراءة روايات المغامرات ؟!

أغاظتنى عبارته الأخيرة ، فاندفعت نحو مكتب الطابق الأرضى ، حيث تلك المكتبة الصغيرة ، وقفزت يدى إلى نفس الكتاب ، الذى استخدمه لفتح المدخل السرى ، وجذبته بالوسيلة نفسها ، و...

ولم يحدث شىء ...

تراجعت كل الدهشة ، وأنا أحدق فى الكتاب ، ثم فى الفراغ ، الذى انتزعته منه ، ثم انقضضت بكل غضبى على المكتبة ، أحاول زحزحتها من مكانها ، فهتف هو منزعجًا :

ـ حذار أن تسقط الكتب .

صرخت بكل انفعالى :

المدخل السرى خلف هذه المكتبة .

قال بنفس اللهجة المشفقة :

ـ اهدأ ، وسنتعاون معًا فى دفعها .

تعاون معى بالفعل ، ورحنا نزيح تلك المكتبة الصغيرة معًا ...

كانت ثقيلة للغاية ، شأن كل أثاثات زمنها ، إلا أنها راحت تنزاح رويدًا رويدًا ، وكلما انزاح جزء منها ، شعرت نفسى باليأس ، مع الجدار ، الذى يظهر خلفها ...

وكمحاولة يائسة أخيرة ، رحت أطرق الجدار بقبضتى فى قوة ؛ فى محاولة لأن استشف أى فراغ خلفه ...

ولم يكن هناك أى فراغ ...

ولا أى مدخل سرى بالتالى ...

وانهرت على أقرب مقعد صادفنى ، وقد تحول كيانى إلى كتلة من اليأس ...

ولم يعد هناك مفر من أن أعترف ، بأن (عدنان) على حق هذه المرة ...

شىء ما أصابنى ، منذ وضعت قدمى فى هذا البيت ...

شىء مزعج ، غامض ، عجيب ...

ومخيف ...

للغاية ...

« ماذا الآن ؟!... »

ألقى (عدنان) سؤاله فى حذر ، فغمغمت ، دون أن أرفع عينى إليه :

ـ لست أدرى .

صمت لحظات ، ثم سألنى فى حذر :

ــ أمازلت تذكر كل شىء فى وضوح ، كما لو أنك قد عشته بالفعل ؟!

أومأت برأسى إيجابًا فى يأس ، وأنا أكاد أبكى ، من شدة الحيرة ، فصمت لحظة أخرى ، ثم قال فى صوت خافت :

ــ العجيب أنك قد ذكرت أمرًا ، لم أخبرك به بعد .

رفعت عينى إليه متسائلاً ، فتابع فى حذر :

ــ رماد جدك .... لست أدرى كيف علمت بشأنه .

سألته فى دهشة ، وجسدى يرتجف من المفاجأة :

ــ أهو موجود بالفعل ؟!

أومأ برأسه إيجابًا ، وأشار بيده ، قائلاً :

ــ فى ذلك الوعاء فى حجرتك ، على المائدة الصغيرة ، إلى جوار النافذة ..

هتفت فى دهشة منزعجة :

ــ أيحوى رماد جدى ؟!

أومأ برأسه إيجابًا فى بطء ، قبل أن يغمغم :

ــ وهذا يضعنى أمام تفسير واحد .

سألته فى توتر :

ــ وما هو ؟!

أجابنى فى سرعة :

ــ إنها محاولة اتصال .

كررت فى دهشة حذرة :

ــ محاولة اتصال ؟!

أومأ برأسه إيجابًا مرة أخرى ، بنفس البطء ، قبل أن يقول فى مهابة :

ــ نعم ... محاولة اتصال من جدك .

بدت الدهشة على ملامحى ، فأضاف فى رهبة :

ــ أو بمعنى أدق ، من روح جدك .

وخيل إلىّ أن الموقف كله ينقصه سطوع البرق ، حتى يكتمل المشهد ...

مشهد الرعب .

* * *

9 ـ روح جدى ...

ليلة عصيبة ، تلك التى قضيتها ، بعد ما قاله لى (عدنان) ، عن محاولة روح جدى الاتصال بى ، على هذا النحو ...

ذلك الوعاء الأنيق ، المجـاور للنافذة ، والذى كنت أراه ، مع شروق كل شمس ، صورة مبدعةً للجمال ، قضيت ليلتى أتطلع إليه فى رعب ، متصورًا أن تخرج منه روح جدى فى أية لحظة ...

وعلى الرغم منى ، رحت أفكر فى هذا الاحتمال ...

ماذا لو أن روح جدى تحاول الاتصال بى حتمًا ؟!...

ماذا لو أن لديه ما يريد إخبارى به ؟!...

لقد قرأت وشاهدت أعمالاً كثيرة ، تتحدث عن هذا ...

عن روح هائمة ، تريد إيصال رسالة إلى عالم الأحياء ...

أو تحذير ما ...

وفى قلق شديد ، رحـت أتساءل : ما الذى يمكن أن تحاول روح جدى الحبيب إبلاغى به بالضبط ، عبر هذا الاتصال ؟!...

أهو أمر يتعلق بموته ؟!...

هل مات قتيلاً مثلاً ؟!...

أم إن هناك ما يريدنى بالفعل أن أكمله ؟!...

قضيت شطرًا طويلاً من الليل أفكر فى هذا ، قبل أن يغلبنى النوم فى النهاية ، قبيل الفجر بساعة واحدة ...

ثم هاجمنى ذلك الكابوس مرة أخرى ...

كابوس تصورت فيه أننى أفتح عينىَّ ، فأجد جدى واقفًا عند طرف فراشى ، يتطلع إلىَّ بنظراته الصارمة ، وهو يرتدى حلته التقليدية القديمة ...

ثم فجأة ، تحولت الحلة إلى معطف معامل أبيض ...

وتحولت حجرة النوم إلى ذلك المعمل فى القبو ...

وإلى جوار جدى ، وقف (عدنان) ، يتطلع إلىَّ بدوره ...

كانت دائرة المصابيح الضخمة كلها مضاءة ، تصب على وجهى وجسدى ، وكل أجهزة الكمبيوتر الحديثة فى المعمل تعمل ، وشاشاتها ترسم آلاف الرموز العجيبة ...

ولأول مرة فى كابوسى ، سمعت صوت جدى الخشن ، وهو يقول :

ـ خلاياه الأصلية بدأت تستيقظ .

أجابه (عدنان) فى اهتمام :

ـ يبدو هذا ، ولكننى كنت أتوقع وقتًا أطول .

هز جدى رأسه فى صرامة ، وهو يقول :

ـ خلاياه البشرية ليست فى قوة الخلايا الأصلية .

كنت أتطلع إليهما بنظرة خاوية ، وبلا أية انفعالات تقريبًا ، ورأيت جدى يميل نحوى ، ويسألنى :

ـ هل ترانى فى وضوح ؟!

أردت أن أجيب بشىء ما ، ولكن ، وكما يحدث فى الكوابيس ، انعقد لسانى ، ولم أستطع قول شىء ...

أى شىء ...

وفى غضب ، اعتدل جدى ، وقال (عدنان) ، بنفس هدوئه المستفز :

ـ أخبرتك أنه سيحتاج إلى وقت أطول .

هز جدى رأسه نفيًا فى قوة ، وقال فى صرامة شديدة :

ـ كـــلا ...

ثم عاد يميل نحوى فى شدة ، وتطلع إلى عينىَ المفتوحتين مباشرة ، وهو يقول فى صرامة غاضبة :

ـ لقد حان الوقت ... استيقظ .

وانتفض جسدى فى عنف ...

واستيقظت ...

كانت الشمس تغمر حجرتى عندما فتحت عينىَّ ، وشعاع منها ينعكس على ذلك الوعاء ، ثم يتجه نحو وجهى مباشرة ...

ولأول مرة ألاحظ هذا ...

شعاع الشمس ، أظهر بريقًا خاصًا فى ذلك الوعاء ...

بريق يعكس كل ألوان الطيف مجتمعة ...

لست أدرى كيف لم أنتبه إلى هذا فى المرات السابقة ، ولعل السبب هو رؤيتى الشخصية لذلك الوعاء فى السابق ، ورؤيتى له اليوم ...

ربما !!...

نهضت من فراشى ، واقتربت فى شىء من الحذر ، من ذلك الوعاء ...

إنه وعاء جميل المظهر ولا شك ، ولكنه مصنوع من مادة غير عادية ، أو من قطع صغيرة من مواد مختلفة ، لكل منها نوعه وبريقه ...

والأضواء ، التى تبعث ، من انعكاس أشعة الشمس عليه ، تمتزج مع بعضها البعض ، لتبعث فى نفسك شعورًا عجيبًا ...

شعور هو مزيج من الرهبة ، والخوف ، مع استرخاء لا يناسب كليهما ...

وبمنتهى الحذر والتوتر ، مددت يـدى ، ألمس ذلك الوعاء للمرة الأولى ...

ثم تراجعت فى ذعر ...

الوعاء معدنى تمامًا ، كما يوحى شكله وبريقه ، ولكن ملمسه ناعم إلى حد مدهش ، أشبه بملمس مخملى رقيق ...

ثم إنه بارد إلى درجة عجيبة ، كما لو كان مصنوعًا من الثلج ، وليس من المعدن ...

وعلى بعد مترين منه ، رحت أتأمله فى توتر ، وعقلى يطرح علىّ عشرات الأسئلة ...

من أى شىء صنع هذا ؟!...

وكيف ؟!...

وهل يحوى بالفعل رماد جدى ؟!...

ولماذا هو هنا ؟!...

لماذا ؟!...

لماذ ؟!...

لماذا ؟!...

ملت نحو الوعاء فى حذر ، وأمسكت غطاءه البارد ، وجذبته فى رفق ؛ لألقى نظرة على رماد جدى ...

ولم يرتفع الغطاء ...

جذبته مرة ثانية ...

وثالثة ..

ورابعة ...

وفى كل مرة كنت أجذبه بقوة أكبر ...

وأكثر ...

ثم بدت لى الحقيقة واضحة ...

الغطاء مثبت فى الوعاء ، على نحو ما ، بحيث لا يمكن رفعه عنه أبدًا ، وكأنما حرص جدى ، أو حرص (عدنان) ، على ألا يفتحه أحـد ؛ خشـية أن يتناثر رماد جدى ؛ جراء خطأ ما ، أو هفوة ما ...

دفعت أكبر قدر من الشجاعة إلى جسدى ، وحاولت أن أطغى به على كل مشاعرى ، ومددت يدى ألتقط الوعاء ، وأرفعه عن تلك المنضدة الصغيرة ...

وهنا انتفض جسدى مرة أخرى ...

وبمنتهى العنف ...

الوعاء كان مثبتًا أيضًا بالمنضدة ..

حقيقة كشفتها ، عندما حاولت رفعه أولاً فى رفق ، ثم فى قوة ، تحولت بعدها إلى إصرار ، بل وعنف ، على الرغم من ملمسه البارد ، الذى صار يؤلم يدى ...

وهنا تراجعت ، ورحت أحدق فيه مرة أخرى ...

أى وعاء هذا ؟!...

والسؤال الأهم : أهو بالفعل وعاء لحفظ الرماد ، أم إنه شىء آخر ؟!...

استمر تحديقى فيه لحظات ، انتقلت خلالها مشاعرى كلها ، من الخوف إلى الضيق ، ثم إلى غضب ، جعلنى أهتف فى حدة :

– (عدنان) ... أين أنت ؟!..

لم يجب سؤالى ، الذى كررت النداء به عدة مرات ، فاندفعت خارج الحجرة ، وأنا أهتف به مرة أخيرة ، قبل أن أهبط للبحث عن (عدنان) هذا ...

كان المنزل هادئًا ساكنًا ، تغمره أشعة الشمس ، عبر كل نوافذه المفتوحة ، وكان مرتبًا نظيفًا للغاية ، وتلك السيارة عتيقة

الطراز تقف أمامه ، فى نفس موضعها ، ولكن لم يكن هناك أثر لـ (عدنان) ...

أى أثر !!...

قضيت ما يقرب من نصف الساعة ، فى البحث عنه ، وفحصت خلال هذا تلك المكتبة الصغيرة مرة أخرى ، ولكنه كان قد اختفى تمامًا ...

وعلى نفس المقعد ، الذى اعتدت تناول طعام إفطارى عنده ، جلست أدير عقلى فى كل ما حدث ، منذ وصلت إلى هذا المكان ...

كل شىء ، وكل حدث ، وكل موقف ، كان يدعو لحيرة ، لا حدود لها ، كمـا لو أننى أحيـا فى فيلم سينمائى ، من أفلام الرعب الأمريكية ، وليس فى عالم الواقع ...

أغمضت عينىّ ، وتساءلت : أمن الممكن أن يكون كل هذا حلمًا ؟!...

أو حتى كابوسًا ، من نوع لم أمُرُّ به من قبل ؟!...

ولكن الأحلام ، وحتى الكوابيس ، لا تأتى بهذا الوضوح ، وبكل هذه التفاصيل الدقيقة ، والمشاعر الواضحة المميزة ...

ولو أنه ليس حلمًا ، فما هو؟!..

لو لم أجد جوابًا ، فهذا لن يعنى أن ما يحدث فى منزل جدى الحبيب أمرًا عاديًا ، بأى مقياس عملى ، أو علمى ...

أو حتى منطقى ...

ما يحدث هو أمر عجيب ...

عجيب ...

عجيب إلى أقصى حد ...

ثم فجأة ، قفزت تلك الفكرة إلى رأسى ...

إنه (عدنان) ولا شك ...

(عدنان) يريد إصابتى بالجنون ، أو بالرعب ، ودفعى لمغادرة المنزل ؛ حتى يمكنه الاستيلاء عليه لنفسه ..

فالمنــزل ، بكل ما يحويه مــن تحف نادرة ، يساوى ثروة بلا شك ...

ثروة كبيرة ...

ثروة ، ربما تقدر بالملايين ...

نعم ... هو (عدنان) ...

هذا هو التفسير الوحيد ...

نهضت فى حزم ، عند هذه النقطة ، أناديه مرة أخرى فى قوة ، على الرغم من ثقتى فى أنى لن أتلقى جوابًا ...

ومع الصمت والسكون ، اللذين أجابانى ، طرح عقلى علىّ سؤالاً جديدًا ..

لو أن (عدنان) هو من يفعل هذا حقًا ، فكيف يفعله ؟!...

كيف يدس كل هذا فى عقلى ، ويقنع به مشاعرى ؟!...

كيف ؟!...

« إنه الوعاء ... »

هتفت بالكلمة فى انفعـــال ، عندما بدا لى أنه يستخدم ذلك الوعاء العجيب ، الذى يعكس أشعة الشمس على وجهى كل صباح ؛ لكى يضعنى فى حالة أشبه بالتنويم المغنطيسى ، يمكن معها أن أحيا فى عالم من الوهم ، متصورًا أنه كل الحقيقة ...

مع هذا الاستنتاج ، اندفعت أصعد إلى أعلى ، عائدًا إلى حجرة النوم ، وإلى ذلك الوعاء مباشرة ...

وأمام الوعاء توقفت متوترًا ، وأنا أتطلع إلى بريقه العجيب ، ثم غمغمت فى عصبية :

ـ سامحنى يا جدى الحبيب ، لو أن رمادك داخل هذا الوعاء بالفعل .

اعتمدت على المنضدة بقدمى اليمنى ، واستنفرت كل قوتى ، وجذبت الوعاء ...

كان ملتصقًا بالمنضدة فى قوة ، إلا أن أصابعى شعرت ببدء حركته ، فوجدت نفسى ، ودون أن أشعر ، أصرخ بكل قوتى :

ـ ساعدنى يا جدى .

ومع نهـــاية صرختى ، انفلت الوعاء ، وفقـــدت مع انفلاته توازنى ، وتراجع جسدى فى عنف ، وأنا أتشبث بالوعاء ، بكل ما أملك من قوة ...

وعلى الرغم من قوة ارتطامى بالأرض ، لم أشعر بأى ألم ، وكأن مشاعرى كلها قد توقفت عند ضرورة الحفاظ على الوعاء ...

وبأى ثمن ...

ولكن ارتطامى بالأرض ، أطار غطاء الوعاء ، الذى بدا لى شديد الإحكام ، فصرخت بكل ارتياعى :

ـ لا .... رماد جدى ...

وعبر الوعاء المفتوح ، تناثر رماد جدى الحبيب فى هواء الحجرة ، وتساقط بعضه على وجهى ، فسعلت فى قوة ، وأغلقت عينىَّ فى شدة ....

وسمعت تلك الأصوات من حولى ...

ومع خفقات الرعب فى قلبى ، فتحت عينىَّ ، اللتين اتسعتا عن آخرهما ، فى رعب ذاهل ...

فما رأيته أمامى كان مخيفًا ومذهلاً ...

بكل المقاييس .

* * *

10ـ جدى .. أنا ..

مستحيل !!... لا يمكن أن يكون ما أراه حقيقيًّا !!...

إننى لم أعد فى حجرة نوم جدى ...

لم أعد ممسكًا بذلك الوعاء ، ولا يحمل وجهى أثر رماده !!...

لقد فتحت عينىَّ ، لأجد نفسى مقيدًا إلى تلك المنضدة الجراحية ، فى معمل جدى ، الذى أكَّد (عدنان) أنه لا وجود له ...

وأمامى مباشرة يقف (عدنان) مبتسمًا ابتسامة هادئة ، خلف آخر شخص يمكن أن أراه فى عالم الحقيقة ...

جدى ..

كان حيًّا تمامًا ، ويحمل تلك النظرة الصارمة ، التى حفظتها من صورته الكبيرة فى منزلنا ، ولكنه لم يكن يرتدى حلته العتيقة النمطية ...

كان يرتدى معطفًا أبيض اللون ، يشبه معاطف الأطباء ، ويرتكن بيده على جهاز عجيب ، لم أشاهد مثيلاً له فى حياتى كلها من قبل ...

حدقت فيهما ذاهلاً ، قبل أن أغلق عينىّ فى قوة ، وأغمغم بكل توترى :

ــ ليس هذا حقيقى ... إنه حلم ... كابوس ..

شعرت بملمس يد جدى على وجهى ، وهو يقول فى صرامة خشنة :

ــ بل هو حقيقة ... أنت لست نائمًا .

وأضاف (عدنان) فى ارتياح :

ــ لقد استيقظت .

فتحت عينىّ أحدق فيهما مرة أخرى فى ذهول ، قبل أن أقول بصوت مرتجف :

ــ ولكن جدى مات بالفعل .

اعتدل جدى ، وهو يقول فى صرامة :

ــ كانت هذه هى الوسيلة الأفضل ؛ لجذبك إلى هنا .

حدقت فى جدى مرة أخرى ، غير مصدق أنه على قيد الحياة ، وقلت بنفس الصوت المرتجف :

ــ إذن فأنت لم تمت .

مط شفتيه ، وهو يقول :

ــ ليس بعد .

هززت رأسى فى قوة ، وأنا أقول :

ــ ولكنك تبدو كصورتك تمامًا ، التى أحفظها منذ طفولتى ... لا أحد يبقى على الهيئة نفسها ، لأكثر من ثلاثين عامًا .

أجاب ، وهو يتحسس شاشة جهازه :

ــ إنها هيئتى ، منذ جئت إلى هنا .

لم أفهم ما الذى تعنيه عبارته ، ولا لماذا يقيداننى إلى المنضدة ، التى تكاد دائرة الضوء فوقها تغشى بصرى ، فقلت بكل توترى :

ــ لست أفهم شيئًا .

أجابنى (عدنان) هذه المرة ، بنفس هدوئه المستفز :

ــ أنت فى نصفك واحد منا ، وكان من الضرورى أن تصل انفعالاتك إلى ذروتها ، حتى تبلغ خلاياك الحد الأقصى ؛ لإيقاظ النصف الخاص بنا ، على حساب نصفك البشرى .

حدقت فيه ذاهلاً ، وأنا أحاول التخلص عبثًا من قيودى ، مكررًا :

ــ لست أفهم شيئًا ... لست أفهم شيئًا !!..

تحسس (جدى) وجهى مرة أخرى ، قبل أن يقول :

ــ الواقع أننا جنس يحيا على الأرض ، منذ ملايين السنين ، ولكننا لم نفصح عن وجودنا قط ، منذ بدأت الحضارة البشرية على وجه الأرض ... وهذا المنزل هو النقطة الرئيسة ، التى يمكننا عندها الاتصال المباشر بعالم البشر .. وستتعلم الكثير عن جنسك الحقيقى ، مع مرور الوقت .

رددت ذاهلاً :

ــ جنسى الحقيقى ؟!

مط شفتيه ، وهو يقول بصرامته الخشنة :

ــ أمك خالفت القواعد ، وفرت من هنا ، وتزوجت بشريًا ، وكنت أنت نتاج هذا الزواج ... لم نكن نعلم إذا ما كنت تحمل فى جيناتك خلايانا أم لا ، وكان من الضرورى أن نحضرك إلى هنا ؛ حتى نكشف هذا .

استرخى جسدى ، مـــن فـــرط ذهـــولى ، وعقلى يسترجع كل ما مر بى ، منذ وصولى إلى منزل جدى ، وما بدا لى كأمور يستحيل فهمها ، وغمغمت مستسلمًا :

ــ إذن فكل ما رأيته وواجهته هنا كان ...

قاطعنى جدى ، قائلاً :

ــ مجرد وهم ... وهم صنعته واحدة من آلاتنا المتطورة ، التى تجعلك تحيا فيه بكل حواسك ، كما لو كان حقيقة ملموسة ...

وأضاف (عدنان) ، بابتسامة باهتة :

ــ الواقع أنك لم تعد فى وعيك ، منذ وضعت قدميك فى السيارة ، أمام مطار (بيروت) ... أجهزتنا أفقدتك وعيك مباشرة ، ثم سيطرت على عقلك ؛ لتحيا فى عالم افتراضى ، صنعناه لك .

قال جدى ، وهو يشد جسده فى صرامة :

ــ كان الهدف هو إنهاك عقلك بمتناقضات لا حصر لها ، تجهد مشاعرك وخلاياك البشرية ، حتى تتغلب عليها خلايا بنى جنسك .

ثم مال نحوى بشدة ، مضيفًا :

ــ ولقد نجح هذا تمامًا .

أشار (عدنان) إلى الجهاز ، وهو يقول :

ــ جهازنا أكد أن خلايا جنسنا قد انتصرت أخيرًا ، وأنك قد صرت بالفعل واحدًا منا .

أضاف جدى بصرامته الخشنة :

ــ ولقد عملنا على ألا تستيقظ خلاياك البشرية ، إلا بالقدر الذى لا يسمح لها بالسيطرة على كيانك مرة أخرى .

غمغمت فى مرارة :

ــ أتعنى أننى لم أعد بشريًا ؟!

أجابنى فى حزم :

ــ فى الجزء الأعظم منك .

ثم بدأ فى حل قيودى مع (عدنان) ، وهو يضيف :

ــ والواقع أن هذا سيضيف إليك قوة جديدة ، تؤهلك لاحتلال موقعى ، بعد أن حان وقت عودتى .

سألته فى استسلام عجيب :

ــ عودتك إلى أين ؟!

أجاب فى صرامة :

ــ ستعرف كل هذا مع مرور الوقت .

كانا قد حلا قيودى كلها ، فنهضت فى بطء ، أتطلع إليهما فى استسلام كامل ، فى حين خلع جدى معطفه الأبيض ، وناوله إلى (عدنان) ، وهو يقول :

ــ هذا المنزل صار ملكًا لك ، منذ هذه اللحظة ، و(عدنان) سيبقى معك لرعايتك ، وليشرح لك كل ما تريد معرفته ، حتى موعد اللقاء .

سألته بنفس الاستسلام :

ــ أى لقاء ؟!

أجاب ، دون أن يلتفت إلىّ :

ــ ستعلم فى حينه .

ثم اتجه نحو ذلك الصندوق الزجاجى ، الذى يحوى الوعاء ، الذى أخبرنى (عدنان) أنه يحوى رماده ، عندما كنت أحيا فى ذلك العالم الوهمى الافتراضى ، وهو يضيف :

ـ وعليك أن تعلم ، ومنذ هذه اللحظة ، أنه لم يعد مسموحًا لك بمغادرة هذا المنزل بعد الآن ... أبدًا .

كان هذا القول كفيلاً بإثارة كل غضبى وتوترى فيما مضى ، ولكن العجيب أننى قد استقبلته فى استسلام عجيب ، وأنا أردد بلا انفعال :

ـ أبدًا ؟!

لمس الصندوق الزجاجى بيده ، وهو يجيب فى صرامة :

ـ أبـدًا .

وما أن لمس ذلـك الصـندوق ، حتى بـدا وكأن جسده كله يتلاشى ، ثم يتحول إلى ما يشبه الدخان الأزرق الكثيف ، الذى عبر زجاج الصندوق ، مخالفًا كل قواعد الطبيعة ، ثم غاص فى قلب الوعاء الأنيق فى منتصف الصندوق ، وتلاشى بدوره ...

وللحظات ، جلست أحدق فى الصندوق الزجاجى بلا مشاعر ، حتى قال (عدنان) فى هدوء شديد :

ـ هـذا يشـبه ما تطلقون عليـه ، فى العلم الأرضى ، اسم الانتقال الآنى .

غمغمت متسائلاً :

ـ وإلى أين ينقله ؟!

أجاب بنفس الهدوء :

ـ إلى عالمنا .

وقفت أمام نافذة منزل جدى ، أراقب غروب الشمس ، وأنا أستعيد فى ذهنى كل هذا ، وأسترجع كل تفاصيل ذلك العالم الافتراضى ، الذى عشت فيه ...

كأن المنزل يشبه تمامًا ما رأيته فيه ...

كل شىء فيه قديم عريق ، ويمتلئ بالتحف الثمينة ، فيما عدا عدة فروق أساسية ...

الطابق العلــوى كان يحــوى حجــرة نوم واحدة ، ولا وجود للحجرتين الأخريين على الإطلاق ...

وحجرة (عدنان) لم تعد خالية ، ولا حتى مؤثثة بذلك الأثاث العريق ...

لقد كانت تحــوى حجــرة مكتب ، تضم العديد من الوثائق الأصلية ، والكتب الثمينة ...

والمعمل كان موجودًا بالفعل ، خلف تلك المكتبة الصغيرة ...

ولكن الأهم أن الإضاءة لم تكن خافتة على الإطلاق ...

وفى داخلى تولد شعور عجيب ...

شعور بأننى لم أعد بشريًا ...

ولم أكن كذلك على الإطلاق ...

ومن خلفى ، جاء (عدنان) يسألنى ، فى احترام شديد :

ـ هل ترغب فى أى شىء ... يا سيدى ؟!

كانت أول مرة يخاطبنى فيها بهذا اللقب ، على الرغم من أنه بدا لى معتادًا ، وأنا أقول :

ـ كلا ... يمكنك الانصراف .

تساءلت ، والشمس تختفى فى الأفق ، عن ذلك اللقاء ، الذى لم يخبرنى أحدهم شيئًا عنه ...

بمن سألتقى ؟!...

وكيف ؟!...

ولماذا ؟!...

ومع غياب الشمس ، ابتعدت عن النافذة الكبيرة ، ووقفت أمام مرآة عريقة فى أحد جدران المنزل ، لألقى نظرة على ملامحى الجديدة ...

الملامح التى هى نسخة طبق الأصل من ملامح جدى ... الحبيب .

* * *

تمت بحمد الله